أبو الحسن علي الحسني النَّدْوي



الطبعة الرابعة

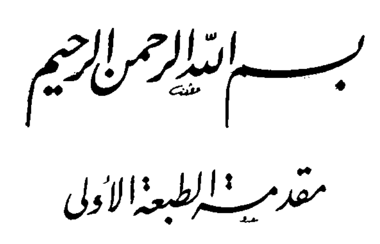
دار القلم
دمشق - بيروت

الطبعة الرابعة

١٤٠٠هـ
١٩٨٠م

دار القلم
دمشق - بيروت

الإدارة : دمشق - حلبوني - ص.ب ٤٥٢٣ - هاتف ٢٢٩١٧٧



الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله • أما بعد :

فرحم الله الشاعر [1] الذي يقول : « لقد عزمت على أن أجهز جيشاً جديداً من بلاد الحب والعاطفة ، فقد بدت في مركز الاسلام طلائع ثورة يقودها العقل الفلسفي » •

لقد رأى المؤلف طلائع هذه الثورة بعينه في بلاد كانت مصدر الايمان والحنان ، والعاطفة والوجدان ، وفي ربوعها تمثلت أروع رواية من روايات الوفاء والفداء وقوة العاطفة ، ولم تزل شعوب العالم الاسلامي تستمد منها هذا الحب الطاهر وهذه العاطفة الجياشة ، وتشعل بها مجامر قلوبها التي تتعرض حينا بعد حين للانطفاء وتواجه العواصف الهوجاء •

وهال المؤلف وأفزعه ضعف العاطفة في هذه البلاد ، وضعف الصلة الروحية والعاطفة بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو خطر كبير ، يمهد لكل ثورة ، ولكل اضطراب ، ولكل ضعف ، ولكل نوع من أنواع الفوضى • وقد تمالأت عوامل كثيرة ودعوات عديدة على تجفيف منابع هذا الحب واضعافه على الاقل ، وأصيبت النفوس بجفاف في الشعور وفي التفكير ، سرى ذلك في الأدب والشعر ، وتعدى الى الدين ومظاهره•

---

١ ــ الدكتور محمد اقبال الشاعر الفيلسوف •

وقد أراد المؤلف أن يكون جنديا صغيرا في مهاجمة هذا التيار ، وفي اثارة هذا الحب الدفين والعاطفة ـ التي اعتقد أنها كامنة كشرارة في الرماد في قلب كل مسلم ـ وتغذيتها وتنميتها ، فجمع لهذا الغرض ما كتب من مقالاتوما ألقى من محاضرات وأحاديث في خلال هذه السنوات، وهي انطباعات عن هذه الشخصية الحبيبة وسيرتها وحياتها ، وعرض سريع لما قد تغنى به الشعراء والمحبون في ديار العجم ، وقد أسميت هذه المجموعة الصغيرة بـ « الطريق الى المدينة » فانها تمهد الطريق الى هذه المدينة، وتبعث الأشواق اليها والى منوّرها عليه ألف ألف سلام ، وأعتذر الى صديقي الأستاذ محمد أسد الذي أخذت منه فكرة هذه التسمية ، والذي سمى كتابه الجليل بـ « الطريق الى مكة » .

وقد طلبت من صديقي أديب العربية الاستاذ علي الطنطاوي أن يكتب كلمة كمقدمة للكتاب فتفضل بها مشكورا، وهي كلمة بليغة رقيقة كما هو العهد بصاحبها .

وأسأل الله مخلصاً أن ينفع بهذا الكتاب الصغير، ويحقق به الغرض الكبير الذي كتب لأجله .

جدة ١٣/١/١٣٨٥ هـ
أبو الحسن علي الحسني الندوي

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد :

فقد ظهرت الطبعة الأولى لكتاب « الطريق الى المدينة » سنة ١٣٨٥ هـ ، وظهرت الطبعة الثانية ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧١ م ، وقد تلقي الكتاب بقبول كبير ، وأبدى عدد من الأدباء والكتاب والعلماء اعجابهم بالكتاب ، وتاثرهم العميق بما جاء فيه ، وقد كان له فضل في اشعال الجمرة الايمانية ، والحب الدفين الكامن للرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم ، وتلك قيمة الكتاب ان كانت له قيمة ، وقد نقل في مدة قريبة الى اللغة التركية ، والى اللغة الأردية الهندية [1] ، وقد قرر تدريسه ومطالعته في بعض المعاهد المحترمة .

ويعاد طبع الكتاب من جديد ، لنفاد الطبعة الأولى والثانية ، وكثرة الطلبات لهذا الكتاب ، وقد كان المؤلف أضاف بعض المواد الى ترجمة الكتاب الأردية ، فنقل ما سهل نقله الى هذه الطبعة ، وترك ما توقف على الصناعات اللفظية ، والتعبيرات المحلية ، والاستعارات

---

١ ـ وقد شرع في ترجمته الى الانجليزية ، وستظهر قريبا ان شاء الله .

والكنايات الفارسية ، أو الأردية ، فلا يتذوقها الا من عاش في أجواء هذه اللغات وبيئاتها ، والى القارىء الكريم الكتاب في طبعته الجديدة وثوبه القشيب •

أبو الحسن علي الحسني الندوي
ندوة العلماء ـ لكهنؤ

٣ـ٧ـ١٣٩٤ هـ
٢٤ـ٧ـ١٩٧٤ م

تقديم

يا أخي الأستاذ أبا الحسن ٠

تقول العامة عندنا في الشام : (المكتوب يعرف من عنوانه) ولقد هزني عنوان كتابك قبل أن أفتح الكتاب (الطريق الى المدينة) ٠

لقد أحسست أنه أعادني ثلاثاً وثلاثين مرحلة في طريق العمر ، لقد ردني الى الوراء ثلث قرن كامل ، فرأيتني وأنا في البادية ، بادية الحجاز ، وقد مرت عليّ وعلى صحبي فيها خمسون يوما ، تتلظى من فوقنا شمسها ، وتتضرّم من تحتنا رمالها ، ترفعنا أكمة لتتلقفنا قفرة، يحرقنا العطش ويروعنا الضلال ، وقد تجمعت آمالنا كلها وأمانينا في أمل واحد ، وأمنية مفردة ، هي أن نرى المدينة ٠

لقد كنا يا أخي تائهين في البوادي في « الطريق الى المدينة » نقنا لذع الجوع وحرقة العطش ، واجهنا الموت ، وتجرعنا من التعبوالخوف الصاب والعلقم ، حتى أصبحنا يوماً ، وكان معنا دليل بدوي ، دائم الصمت ، معقود اللسان ، مربد الوجه ، فاذا به ينطلق وجهه ويتحرك لسانه ويقول كلمة ــ لو أعطيت ألفاً لما كانت الألف أحب الي منها ، كلمة أحسست كأنها أحالت خوفنا أمنا وجوعنا وعطشنا شبعا ورياً ، وتعبنا راحة وهناءً ، كلمة هي السحر ، ان كان من الكلمات ما هو سحر ــ قال : هذا أحد ٠

« أحد » تصور العاشق الهائم اذا طال عليه الهجر ، وبرّح به الشوق ، ثم قيل له : هذا منزل الحبيب •

على أن ذاك حب الجسد ، وهذا حب الروح ، وذاك حب الرغبة الأرضية التي تزول ، وهذا حب العاطفة السماوية التي تبقى ما بقيت الحياة •

اني لا أزال أذكر من وراء ثلث قرن ، كيف صبّت هذه الكلمة القوة في أعصابنا صباً ، فاذا نحن نحث المطي ــ أي نستعجل السائقين ــ فقد كنا في السيارات ، وكانت سيارتنا أولى السيارات التي وطئت هذه الصحراء منذ برأها الله ، فنشط السائقون ، بل أحسسنا مما خالط نفوسنا من هزة الفرحة ونشوة الوصال أن السيارات وهي جماد قد نشطت ، فازدادت قوة وسرعة واقداماً •

ولما درنا من حول « أحد » وبدت لنا القبة الخضراء عجز اللسان يومئذ عن وصف ما أحسسناه ، كما يعجز القلم اليوم •

فتكلمنا بلسان العاشقين : بخفقان القلب وتهطال الدموع ، وما لنا لا تخفق قلوبنا وتهطل دموعنا وقد بلغنا دار الحبيب ، الدار التي كنا نعيش على تصورها ونتغذى بذكرها ، نقرأ السيرة فنحس اذ يمر بنا ذكر هذه الأماكن أنها هي مراح أرواحنا ، وأنها هي مواطن أفئدتنا ، اذا كانت البلاد التي ولدنا فيها مواطن أجسادنا ، ومتى كان موطن الجسد أحب الى المرء من وطن الفؤاد ؟

وهل في الأرض مسلم لا يفدي بلد الرسول ببلده اذا حاق البلاء (لا سمح الله) ببلد الرسول ، ولا يشتري سلامة بيت الله ان عرض له الأذى ببيته وبيت أهله •

واذا كان الرجل يشتهي أن يرى الدار التي ولد فيها الأديب ، والبلد الذي عاش فيه الشاعر ، فيشد الرحال وينفق الأموال ليصل اليه ، فيستحلي في سبيل الوصول اليه مرارة التعب ، ويستهين بمشقات السفر ، فكيف لا يذوب قلب المسلم شوقاً الى البلد الذي وطىء أرضه (محمد) حبيب كل مسلم صلى الله عليه وسلم ، ونشق هواءه وشرب ماءه ، يمشي من حيث مشي الحبيب ، ويصلّي حيث صلّى ، يدخل من حيث دخل يوم هاجر من مكة ، ويخرج من حيث خرج يوم ذهب الى أحد ، يشهد مكان المعركة ويقف على أجداث الشهداء ، ثم يعود الى الروضة التي حلّت في هذه الأرض وهي قطعة من جنة الخلد ، ثم يقف على الغرفة التي احتوت جسده حياً ، ثم أغلقت عليه ميتا ، فلا تفتح الى يوم القيامة ، فيقول : السلام عليك يا سيدي يا رسول الله ·

اني لست أنسى ما شعرت به لما وقفت هذا الموقف أول مرة ، فما لي الآن لا أحس مثل ذلك الشوق ولا أشعر بمثل تلك الفرحة ؟!

مالي أقرأ هذه الأشعار الحجازيات التي كانت تهز قلبي مثل هز الفلاح الشجرة المثمرة ، فتساقط من القلب العواطف والخواطر العلوية كالثمار الناضجة ·

مالي أقرؤها اليوم فلا تهز من القلب الا غصونا قد جردها من ورقها شتاء العمر ، فعادت خطباً ؟!·

أمن طول المقام ، أم من غفلة القلب ، أم لقد أفسدتني الأيام ؟ ام لأننا كنا ناتي في البر نمضي على « طريق المدينة » الأسابيع الطوال، تحدونا الأشواق ويجذبنا الحنين ، وتموج في نفوسنا آلاف الخواطر ، فصرنا ناتيها في ساعتين أو ثلاث ساعات ، نصعد سلم الطيارة في الشام او مصر ، فلا نكاد نفرغ من الطعام ونستريح ساعة الى المنام ، حتى ننزل من سلم الطيارة في جدة ·

ربحنا الوقت وخسرنا العواطف والتأملات ...

لقد كدت أفقد ثقتي بنفسي ، ولكني لما قرأت كتابك يا أخي أبا الحسن « الطريق الى المدينة » أحسست بالشوق يعود فيعتلج بنفسي، فعلمت أن قلبي ما خلا من جوهر الحب ، ولكن هموم العيش وطـول الألفة قد غطيا جوهره بالغبار ، فأزاح كتابك عن جوهره الغبار .

وكدت أفقد ثقتي بالأدب حين لم أعد أجد عند الأدباء هذه النغمة العلوية التي غنّى بها الشعراء من لدن الشريف الرضي الى البـُرعي ، فلما قرأت كتابك وجدتها ، وجدتها في نثر هو الشعر ، الا أنه بغـير نظام .

فيا أبا الحسن لك الشكر على أن رددت اليّ ثقتي بنفسي ، وثقتي بأدب لغتي ، أما المقدمة التي طلبتها فأعفني منها ، لأنك لست في حاجة اليها ، ولا يحتاج اليها هذا الكتاب .

ان المقدمات في الكتب كالوسيط في التجارة ، يطلبه التاجر الجديد لترويج البضاعة المجهولة ، فماذا يصنع الوسيط اذا كان المستهلكون يعرفون التاجر أكثر مما يعرفونه هو ، ويحرصون على شراء البضاعة أكثر من حرص التاجر على بيعها .

والسلام عليك ورحمة الله
مكة المكرمة : ١٣٨٥/٢/١٢ هـ
علي الطنطاوي

الكتاب الذي لا أنسى فضله (*)

أتحدث اليوم عن كتاب كانت منّته ـ ولا تزال ـ عظيمة عليّ ، واني دائم الترحيم على صاحبه العظيم الذي أتحفني عن طريق هذا الكتاب بمنحة هي أغلى الأشياء عندي بعد الايمان ، بل هو جزء من أجزاء الايمان ، وهو كتاب «سيرة رحمة للعالمين» لمؤلفه القاضي محمد سليمان المنصور فوري رحمة الله عليه ، ولهذا الكتاب قصة عجيبة .

لقد كان أخي الأكبر (٢) ـ وهو الذي تولّى تربيتي وتثقيفي بعد وفاة أبي ، وقد توفي وأنا في التاسعة من عمري ـ موفقا كل التوفيق في اختيار الكتب التي كان يحب أن أطالعها في صغري ، فقد قدّم اليّ في أول ما قدم

★ ـ حلقة من سلسلة « الكتب التي عشت فيها » كتبها المؤلف لمجلة البعث الاسلامي .

٢ ـ هو الدكتور السيد عبد العلي الحسني مدير ندوة العلماء في لكهنؤ الهند ، توفي في ٢٨ ذي القعدة عام ١٣٨٠ هـ .

كتاب « سيرة خير البشر » لمؤلف هندي ، وكان حريصاً على أن أكثر من مطالعة كتب السيرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام ، لأنه يعرف أنها المؤثر الأكبر في تكوين السيرة والعقيدة والخلق وغرس الايمان ، وقد نشأت لذلك على حب كتب السِّيَر والحرص على اقتنائها ومطالعتها .

وقع بصري مرة على اسم كتاب « رحمة للعالمين » وكنت كثير النظر في الفهارس واعلانات الكتب ، وأرسلت طلبا لهذا الكتاب ، وكان قد طبع منه جزءآن، تقصر ميزانيتي الصغيرة ــ وأنا في العاشرة أو الحادية عشرة من عمري ــ عن شرائه ، ولكن الصغار ــ خصوصاً في العصر الذي أتحدث عنه ــ لا يخضعون لقوانين الميزانيات وعلم الاقتصاد ، انما ينساقون مع الغرائز والعواطف .

وجاء ساعي البريد وهو يحمل هذا الكتاب في ما يحمله من بريد قريتنا الصغيرة ، ورأيت فلا أملك ما أتسلم به هذا الكتاب وأدفع ثمنه ، واعتذرت أمي ــ بارك الله في حياتها (١) ــ مع حرصها على ارضاء طفلها اليتيم عن دفع

---

١ ــ توفيت بعد كتابة هذا المقال لست خَلَون من جمادى الآخرة ١٣٨٨ هـ، وكانت رحمة الله عليها من فضليات النساء =

النقود ، لأنها لم تكن تملكها في ذلك الحين ٠

ورأيت فلم أر لي مساعداً وشفيعاً في هذه المهمة الا الشفيع الذي طالما لجأ اليه الأطفال ، وعرفوا أن شفاعته لا ترد ، ذلك الشفيع الذي لجأ اليه سيدنا عمير بن أبي وقاص الصغير ، فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم شفاعته وأجازه للقتال في بدر ، ذلك شفيع الدموع والبكاء البريء الذي لم يزل وجيهاً مسموعا عند الله وعند عباده الصالحين ٠

وكذلك كان ، فقد رقّ لذلك قلب أمي الحنون ، واجتهدت في دفع قيمة الكتاب والحصول عليه ، وأخذت الكتاب ٠

بدأت أقرأ الكتاب ، وبدأ الكتاب يهز قلبي ، وليست بهزة عنيفة مزعجة ، انما هي هزة رقيقة رفيقة ، وبدأ قلبي يهتز له ويطرب :

كما اهتز تحت البارد الغصن الرطب

وهذا هو الفارق بين هزة الكتب التي ألفت في حياة الأبطال والفاتحين الكبار ، وبين هزة الكتب التي ألفت

= تحفظ القرآن، وتقول الشعر ولها عدة مؤلفات ومجموع شعر ٠

في سيرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، فالأولى هزة تغير على القلب وتزعجه ، والثانية هزة تنبعث من النفس وتريحها •

وبدأت تتجاوب نفسي لهذا الكتاب وتسيغه كأنما كانت منه على ميعاد، وشعرت في أثناء قراءتي لهذا الكتاب بلذة غريبة، انها لذة تختلف عن جميع اللذات التي عرفتها في صغري – ولم أزل مرهف الحس قوي الشعور – فلا هي لذة الطعام الشهي في الجوع ، ولا هي لذة اللباس الجديد في يوم العيد ، ولا هي لذة اللعب في حين الشوق اليها ، ولا هي لذة العطلة والفراغ بعد الدراسة المضنية والاشتغال المرهق ، ولا هي لذة الانتصار والظفر في المباراة ، ولا هي لذة زيارة صديق قديم أو زائر كريم، انها لا تشبه لذة من هذه اللذات انها لذة أعرف طعمها ولا أستطيع وصفها ، وأعترف أني لا أستطيع حتى اليوم أن أصفها بدقة وأعبر عنها بكلمة ، ان غاية ما أستطيع أن أقول انها لذة الروح ، وهل الاطفال لا يحملون الأرواح ؟ ولا يشعرون باللذة الروحية – ؟ بلى والله ! ان الاطفال أشف روحا وأصح شعورا ، وان عجزوا عن التعبير •

كنت أقرأ في هذا الكتاب المعجب المطرب خبر من كان

يسلم من قريش فتنهال عليه أنواع العذاب فكان يحتمل كل ذلك في ثبات وصبر بل في لذة وسرور ، فكنت أشعر بأن هناك لذة لا يعرفها كثير من الاغنياء والاقوياء، وكثير ممن يعدون في الحياة سعداء ، وهو أن تضرب على الحق وتضطهد في عقيدة ، وتهان في سبيل الدعوة ، وان هذه اللذة لا تعدلها لذة القوة والظفر والحكم ، وأريت أن نفسي تتمنى أن تسعد بهذه اللذة وبهذه الكرامة ولو مرة في العمر ٠

وقرأت قصة مصعب بن عمـير ، وكان مثال الترف والاناقة في اللباس والبذخ في المعيشة ، وهو فتى قريش الناعم، يخرج بمكة وعليه ثياب تقوّم بمئة من الدراهم، ويتبعه الغلمان ويصبح حديث الوادي ، ثم يضع يده في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيخرج من كل هذا النعيم والترف ، ويتخشن في اللباس ويتقشف في المعيشة، وقد يضطر الى أن يمسك رداءه بشوك السمر ، ويدمع هذا المنظر عين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويذكر ماكان عليه مصعب من رقة المعيشة ونعومة الحياة، ويقتل فتى الفتيان في أحد فلا يخلف الا كساء اذا غطي رأسه به انكشفت رجلاه ، واذا غطيت رجلاه انكشف رأسه ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « غطوا رأسه وضعوا على رجليه الاذخر » (١) ٠

---

١ ــ الاذخر بكسر الهمزة : حشيشة طيبة الرائحة ٠

قرأت هذه القصـــة ، فملكت قلبي وأسرت نفسي وعرفت أن وراء العيش الناعم ، واللباس الفــاخر ، والطعام الأنيق ، والقصر الشامخ حاجة تقاصرت عنها همم الأثرياء والملوك ، ولذة جهلها أصحـــاب الشهوات والمعدات ، ورجعت الى نفسي فوجدتها تطمح الى هذه الحاجة وترغب في هذه اللذة ، ووجدتها أكثر اجلالا لهذه الحقيقة منها للابس الأغنياء والمظاهر الجوفاء .

وقرأت قصة الهجرة النبوية ، قصة لا أعرف أني قرأت قصة أكثر تأثيراً وأجمل تصويراً من هذه القصة التي يحكيها المؤلف ، في صدق وبساطة ، يدخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة وقد تعلقت به القلوب وطمحت اليه الأبصار ، وتتقـــدم قبيلة قبيلة وتقول في صـــدق واخلاص : يا رسو لالله ، هلمّ الينا ، الى العدد والعدة والمنعة ، فيقول ــ فداه أبي وأمي ــ : «خلوا سبيلها فانها مأمورة » ثم تبرك على باب مسجده اليوم ، وتأبى أن تقوم ويأبى الله أن يكون هذا الشرف الذي ليس فوقه شرف الا لأبي أيوب الأنصاري ، فيحتمل أبو أيوب رَحله فيضعه في بيته ، وأقرأ سرور أبي أيوب بهذه الكرامة التي ساقها الله اليه واخلاصه في ضيافته ، أقرأ كل هذا ، وأجد قلبي قد فارقني ورافق ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيدخل في ركابه المدينة ، وأجد كأني أشاهد كل ذلك

بعيني ، وأجد أن كل ما قرأت أو سمعت من دخول الملوك والفاتحين والعظماء والأغنياء قد تضاءل واضمحل ، وأن كل ما عرفته من حب واخلاص من رجل لرجل قد ذاب وغاب ، وارتسم هذا المنظر في نفسي وفي ذاكرتي ٠

وقرأت قصة أحد ، قصة لم يعرف التاريخ أعظم منها، وأغرب منها ، وأجمل منهـا ، في الوفاء والاخـلاص والبطولة، والايمان واليقين والخلق الكريم، وقد هزّني قول أنس بن النضر رضي الله عنه للذين جلسوا وألقوا بأيديهم وقالوا : قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فماذا تصنعون بالحياة بعده ؟! موتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقول القائل : « اني لأجد ريح الجنة من دون أحد» والذي كانت أمنيته الأخيرة أن يصل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في آخر عهده بالدنيا، فحملوه اليه وهو يجود بنفسه ولفظ نفسه الأخير بين قدمي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكيف ترّس أبو دجانة رضي الله عنه بنفسه دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقع النبل في ظهره وهو منحن عليه، الى غير ذلك من أحاديث الحب والتفاني ، وهكذا أتابع قراءتي لهذا الكتاب ، وقد يغلبني البكاء فأبكي ، وقد يملكني السرور والطرب فأطرب ٠

ان الحسنة التي لا أنساها لهذا الكتاب وصاحبه المخلص أنه أثار في قلبي كامن الحب الذي لا لذة في الحياة بغيره ، ولا قيمة للحياة بغيره ، وقد صدق الشاعر الفارسي [1] حيث قال : **« قاتل الله ذلك اليوم الذي مضى ولم أذق فيه لذة الحب ، ولا بارك الله في الساعة التي مضت ولم تهب فيها نفحة من نفحات الحب ، وسحقاً للحياة اذا قضيتها كلها في تحكيم للعقل والخضوع للمنطق »** ·

بل ان الحب هو محصول الحياة ولب اللباب ، وقد أجاد القائل الذي يقول : « نظرت في هذا العالم فاذا هو بيدر [2] واسع ، ونظرت فيه فاذا « الحب » هو الحب الوحيد وكل ماعداه فهو تبن وحشيش ، وهشيم وحصيد » ·

هذا هو « الحب » الذي امتاز به من امتاز من الأبطال ونوابغ الرجال والعبقريين بين أقرانهم وأمثالهم ، وعاش به من عاش من الضعفاء وأوساط الناس ، وخلّف آثارا عجز عن انتاجها أقوى الرجال وأغناهم ، وملكه الرجال فقهروا الأمم ، وملكته الأمة فقهرت العالم ·

---

١ ــ هو شاعر الفارسية البارع الأمير خسرو ·

٢ ــ البيدر الموضع الذي يجمع فيه الحصيد ويداس ·

هذا هو « الحب » الذي أفلست فيه هذه الأمة في العهد الأخير ، فملكت مالا طائلا وعلما واسعا وجاها عريضاً ودولا كثيرة ، ولكنها أفلست في « اكسير الحياة » فأصبحت جسداً ميتا تحمله الحياة على أكتافها .

هذا هو « الحب » الذي كان أعظم الطبقات افلاساً فيه الطبقة العصرية المتعلمة في هذه الأمة، فكانت أجوفها روحاً ، وأضعفها مقاومة ، وأخفها وزنا، وأكدرها حياة، وأضلها عملا .

وشكراً لهذا الكتاب وصاحبه ، لأنه أثار في نفسي كامن الحب وحرّكه ، وشكراً على أنه وجه هذا الحب المنبعث المتحرك الى من يستحقه بما فطر عليه من معاني الحسن والاحسان ، ومعجزات الجمال والكمال ، الذي لم يخلق الله في هذا الكون ــ وهو الخلاّق المبدع ــ أجمل منه سيرة وصورة ، وأقوم منه خَلقا وخُلقاً صلى الله عليه وسلم .

ان مصيبة هذه الأمة البائسة أنها قطعت صلتها عن القلب ، وحُرمت لذة الحب ، وقد صدق شاعر الاسلام محمد اقبال اذ قال :

« ان كارثة المسلمين في هذا العصر أنهم يحملون

القلوب ولا يعرفون المحبوب ، انهم يملكون مادة الحب ، ولا يعرفون من يشغلونها به ويوجهونها اليه »٠

سلام عليك يا سليمان ، لقد وجدت في كتابك نعمتين لا أعدل بهما نعمة بعد نعمة الاسلام ، انما هما : نعمة الحب الطاهر، ونعمة هدفه الصحيح، ويا لهما من نعمة٠

محمد اقبال في مدينة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم (*)

لقد عاش الدكتور محمد اقبال شاعر الاسلام وفيلسوف العصر ـ مدة حياته ـ في حب النبي صلى الله عليه وسلم، والأشواق الى مدينته ، وتغنّى بهما في شعره الخالد، وقد طفحت الكأس في آخر حياته ، فكان كلما ذكرت المدينة فاضت عينه وانهمرت الدموع، ولم يقدر له الحج وزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم لجسمه الضعيف ، الذي كان من زمان يعاني الامراض والأسقام ، ولكنه رحل الى الحجاز بخياله القوي ، وشعره الخصب العذب ، وقلبه الولوع الحنون ، وحلّق في أجواء الحجاز ، وتحدث الى الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم بما شاء قلبه وحبه ، واخلاصه ووفاؤه (١) وتحدث اليه عن نفسه ، وعن عصره وعن أمته ، وعن مجتمعه ، وقد فاضت في هذا الحديث قريحة الشاعر ، وانفجرت المعاني والحقائق التي كان الشاعر يغالبها ويمسك بزمامها، وينتظر فرصة اطلاقها،

★ ـ أذيع هذا الحديث من محطة دمشق عام ١٩٥٦ م .

١ ـ ليس هذا الحديث من الاستعانة في شيء ، انما هو أسلوب من أساليب الشعر والحب استعمله الشعراء قديما وحديثاً .

وقد رأى أن فرصتها قد حانت ، وهذا أوانها ومكانها ، فخاطب نفسه بقول الشاعر :

حمامةَ جرعَى حَومةِ الجندلِ ، اسجعي
فأنتِ بمرأى من سعاد ومسمعِ

فكان شعره في النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه من أبلغ أشعاره وأقواها ، وكان حشاشة نفسه ، وعصارة عمله وتجاربه ، وكان تصويرا لعصره ، وتقريرا عن أمته ، وتعبيرا عن عواطفه .

لقد قال محمد اقبال هذه الأبيات ، وهو يتخيل أنه مسافر الى مكة والمدينة ـ شرّفهماالله ـ يهوي به العيس، ويسير به الركب على رمال وعساء ، يتخيل بشدة شوقه وحبه أنها أنعم من الحرير وأن كل ذرة من ذراتها قلب يخفق، فيطلب من السائق أن يمشي رويداً، ويرفق بهذه القلوب الخفاقة ، ويحدو الحادي بما لا يفهمه ، فتثور أشجانه ، وتترنح أعطافه ، وتهيج شاعريته ، وتنطلق قيثارته بشعر رقيق بليغ .

ثم يسعد بالمثول بين يدي الرسول ، فيصلّي ويسلم عليه بما يفتح الله به عليه ، وينتهز الفرصة ، فيحدثه عن نفسه وبلاده ، والفترة التي يعيش فيها ، وعن أمته



وعن الأزمات والمشاكل التي تعانيها • وما فعل بهاالزمان وطوارق الحدَثان، وما فعلت بها هذه الحضارة الغربية، والفلسفات المادية ، وما فعلت برسالتها والأمانة التي حملتها ، وأين هي من ماضيها وخصائصها ، يرثي لها تارة ويبكي ، ويشكوها مرة ويعاتب ، ويشكو غربته في وطنه ووحدته في مجتمعه ، وضيعة رسالته في أمته ، وقد سمَّى هذهالمجموعة بـ « هدية الحجاز » كأنها هديةحملها من الحجاز لأصدقائه وتلاميذه ، ولا شك أنها هدية مباركة للعالمالاسلامي، ونفحة فائحة من نفحاتالحجاز •

يقوم الشاعر بهذه الرحلة الحبيبة ، وقد أربى على الستين ووهنت قواه ، في سن يفضِّل فيها الناس الراحة والاقامة ، فما باله يسافر وهو شيخ ، وقد أضعفهالمرض والشيب ، والسفر الى الحجاز شاق مضن ، وقد نصحه الأطباء والأحبة بالراحة والهدوء، ولكنه يعصيهم ويطيع أمر الحب ، ويلبي منادي الشوق ويقول : « **لقد توجهت الى المدينة رغم شيبي وكبر سني ، أغني وأنشد الأبيات في سرور وحنين ، ولا عجب فان الطائر يطير في الصحراء طول نهاره ، فاذا أدبر النهار وأقبل الليل ، رفرف بجناحيه ، وقصد وكره ليأوي اليه ، ويبيت فيه** » •

كأنه يقول لماذا تعجبون اذا قصدت المدينة ــ وهي

وكر طائر الروح ومأرز المؤمن ـ في أصيل حياتي ، وفي سن أشرفت فيها شمس الحياة على الغروب ، أما رأيتم الطائر اذا جنّ الليل أسرع الى وكره ٠

بدأ محمد اقبال سفره وهو شيخ مريض ، وسارت به الناقة بين مكة والمدينة سيراً حثيثاً، وقد قال لها : «رويدك يا حبيبتي ، فان راكبك لاغب ، ومريض ، وكبير السن، فمشت في نشوة وطرب ، ولم تبال ، كأن الصحراء حرير تحت أرجلها » ٠

يسير الشاعر في هذا الركب الحجـازي الذي يحدو بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ويريد الشاعر أن يسجد سجدة على هذه الرمضاء ، يدوم أثرها في جبهته طول حياته ، ويقترح ذلك على أصحابه وزملائه ٠

ويملكه الشوق ، فيحدو وينشـد أبياتاً من شـعر العراقي(١) والجامي(٢) فيتساءل الناس : من هذا الأعجمي الذي يغني ويحدو بلغة لا نفهمها ؟ ولكنها نغمة تشجي القلوب وتملؤها ايماناً وحنانا ، حتى يذهل الرجل في هذه الصحراء عن الغذاء والماء !٠

---

١ ـ ٢ شاعران فارسيان ، لهما قصائد وأبيات سائرة في الآفاق في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ٠

ويلذ الشاعر بكل ما يعتريه في الطريق ، من سهر وعناء ، وقلة طعام وشراب ، ولا يستطيل الطريق ولا يستبطىء الوصول، بل يقترح على سائقه أن يأخذ طريقاً أطول حتى يعيش في هذه الأشواق ، وفي هذا الحنين مدة أوسع ، وتشتد لوعة الفراق لأنها زاد العشاق ونزهة المشتاق .

وهكذا يطوي محمد اقبال هذه المسافة في سرور وحنين، حتى يصل الى المدينة ، فيقول لزميله : « تعال ياصديقي، نبك سروراً ونتحدث ساعة ، ونرسل النفس على سجيتها، فان لنا شأناً مع هذا الحبيب الذي أسعدنا به الحظ بعد طول فراق وشدة اشتياق » .

ويقبل على نفسه فيتعجب كيف اختص من بين أقرانه بهذه السعادة ثم يقول : « **لا عجب فان المحبين المتيمين أكرم هنا من الحكماء المتفلسفين ، يا سعادة الجد ، ويا حسن الطالع !! لقد سمح لصعلوك مملوك أن يدخل على السلاطين والملوك** » .

ولا يلبث محمد اقبال ــ وهو في هذا الفيض من السرور والسعادة ــ أن يذكر أمته المسلمة ، والشعب المسلم الهندي ، يذكر آلامهما وآمالهما ، فيذكر كل ذلك

في بلاغة الشاعر ، وصدق الرائد ، وما أجملهمـــا اذا التقيا ، يقول :

« ان هذا المسلم البائس ، الذي لا تزال فيه بقية من شمم واباء، وأنفةالملوك وعزة الآباء، لقد فقد معالايام، يا رسول الله ! لوعــة القلب واكســير الحب ، ان قلبه حزين منكسر ولكنه لا يعرف سر ذلك » •

« ماذا أحدثك به يا رسول الله ! عن آلامه ورزيئته ، حسبك أنه هوى من قمة عالية ، أنه هبط من تلك العليا التي وصلت به اليها ، وكلما ارتفع المكان الذي يسقط منه كان ألمه شديداً ، وكانت الصدمة عظيمة، فلطف الله بهذه الأمة المنكوبة الهاوية من قمة المجد العالية » •

« انه لا يزال الزمان يعاديه ، و لايزال ركبه تائهاً في الصحراء ، بعيداً عن غايته ومنزله ، حسبك من هذه الأمة ، وما يسود فيها من الفوضى والاضطراب ، أنهـا تعيش من غير امام » •

« ان غمده فارغ ككيسه ، فهو أعزل فقير ، ان الكتاب الذي فتح به العالم ، وضعه في بيته الخرب ، على طاق تراكمت عليه الأتربة ونسج عليه العنكبوت » •

« انه أصبح ، بطول عهده بالمغامرات والبطولات ،

لا يفهم لغة المغامرين ، واهابة الشجعان المجاهدين ، وقد ألف نغمة المغنين ، وعاش بين الزفرات والأنين » ٠

« وان عينه فقدت النور ، وان قلبه حرم السرور ، ان رزيئته أنه يعيش ولايعرف لذة الوصال والحضور »٠

ثم يذكر الفـــرق بين ماضيه العظيم الذي كان فيه موضع رعاية وعناية واحتفاء ، وحاضره القاسي الكالح، وكيف صعب عليه أن يتقشف ويعتمد على نفسه ، ويكدح في الحياة ، وما أبلغ قوله :

« انه طائر مدلل ، كنت تطعمه بيدك ، وقد ربيته بالفواكه، فشق عليه البحث عن رزقه وقوته في الصحراء»٠

ويتذكر محمد اقبال فتنة اللادينية التي توجهت الى العالم الاسلامي ، ويعرف محمد اقبال ــ وهو من كبار علماء الفلسفة والسياسة وعلم الاقتصاد ــ أن سببها النظر المادي البحت ، وخواء الروح ، وبرودة القلب ، وباعثها هو الحياة المترفة الباذخة التي يعيشها كثير من الناس ، ويعتقد أنه لا سبيل الى محاربة هذه اللادينية ، والفلسفة الاقتصادية المادية الا الحياة التي تقوم على الحب والزهد ، والحياة التي كــان يعيشــها أبو بكر الصديق المحب الزاهد ، فيتمنى للمسلمين هذه الحياة

المثالية التي يسيطر عليها الحب والزهد ، واذا وجدت هذه الحياة اضطر الناس الى تقديرها واجلالها ·

انه لايعلل انحطاط المسلمين بالفقر والضعف في المادة، بل يعلله بانطفاء تلك الشعلة التي التهبت في صدورهم ويقول : « ان أولئك الفقراء ــ المسلمين الأولين ــ لما عرفوا كيف يقومون أمام ربهم في صف واحد ، استطاعوا أن يمسكوا بتلابيب الملوك ، ولما انطفأت هذه الجذوة في صدورهم انطووا على نفوسهم ، وأووا الى الزوايا والتكايا » ·

وانه ليستعرض تاريخ المسلمين ، فيرى فيه ما يخجل كل مسلم ، يرى فيه ما لا يتفق مع الرسالة المحمدية وتعاليمها ومثلها العليا ، ويرى فيه من شرك وعبادة لغير الله ، وخضوع للجبابرة والطغاة ، ما يتندى له الجبين حياء ، يذكر « اقبال » ذلك كله ويطرق رأسه حياء وخجلا ، ويقول في صراحة واعتراف ، وبلاغة وايجاز :

« ان جملة القول ما كنا جديرين بك يا رسول الله » ·

ويلقي نظرة على العالم الاسلامي، وقد جال في أنحائه، وعرف مراكزه ، فيشكو ضعفه وفقره المعنوي ويقول في اجمال : « **ان المراكز الروحية (الرباطات والزوايا)**

أصبحت فقيرة لا تملك غذاء القلب ولا تحمل رسالة الحب ، والمراكز العلمية (المدارس بمعناها الواسع) طغى عليها التقليد ، فهي تردد ما تلقنته في الماضي في غير ابداع وابتكار ، وهي كثور الطاحون يدور في دائرة واحدة ، أما أندية الشعر والأدب فقد خرجت منها كئيباً حزينا ، فليس في نغماتها وأفكارها ما يبعث الروح ويثير الطموح ، انه شعر بارد يخرج من قلب بارد ، وأدب ميت يصدر عن أديب ميت » .

ويقول : « قد ضربت في مشارق الأرض ومغاربها ، فوجدت المدن تغص بالمسلمين الذين يفرقون من الموت ، أما المسلم الذي يفرق منه الموت فلم أر له عيناً ولا أثراً » .

ويذكر السر في ضعف المسلمين ، وتشتت أهوائهم وخمودهم ، فيقول : « لقد شق عليّ ما أراه من سوء حال المسلمين يوماً وشكوت الى ربي ، فقيل : ألا تعرف أن هؤلاء يحملون القلوب ولا يعرفون المحبوب ؟! يعني أنهم يملكون مادة الحب ، ولكنهم لا يعرفون من يشغلونها به ويوجهونها اليه ، فقلوبهم تائهة وعقولهم مضطربة ، وجهدهم ضائع ، وعملهم ضعيف ، وحياتهم لا لذة فيها ولا سرور » وهي حياة من رزق القلب ، وحرم الحب ،

أو حياة من عرف الحب وجهل المحبوب ، انها لا شك حياة عذاب وشقاء وحياة حيرة وضلال ٠

ولكنه رغم ذلك كله غير يائس من المسلمين ، وغير قانط من رحمة الله ، بل ينتقد رجال الدين في يأسهم من المسلمين وقطعهم الرجاء من نهضتهم ، وتعليقهم الأمل بغيرهم ويقول في عتاب وتألم : « ان أحوالهم وأحاديثهم تنم عن أنهم يائسون من جميع أسباب الخير ، وأنهم متشائمون ، ينظرون الى المسلمين والى الحياة بمنظار أسود » ويقول : « ان المسلم ، وان كان قد تجرد عن أبهة الملك والسلطان ، ولكن ضميره وتفكيره ، لا يزالان ضمير الملوك وتفكيرهم ، وأنه ان قدر له أن يعود الى مركزه ، كان جماله جلالا ، وكانت له سطوة لا تطاق » ٠

وهنا يقبل محمد اقبال الى نفسه ، فيحكي حكايتها ، ويشكو ما يعانيه من أهل عصره ومجتمعه ، يقول : « اني أستحق العطف والعناية فاني في صراع عنيف ، وحرب دامية مع عصري المادي » ٠

ولا شك أن اقبال قضى حياته في صراع مع العصر الحاضر ، وقد كفر بالحضارة الغربية والفلسفة المادية ، وتحداهما ، وانتقدهما ، وزيفهما في شجاعة وعلى بصيرة

وخبرة ، وقد كان مربي جيل جديد ، مؤمن بالله ، واثق بنفسه، معتد بشخصيته وشخصية الاسلام، كافر بالاسس المادية والتفكير المادي، الذي قامت عليه الحضارة الغربية، وحق له أن يقول :

« لقد أذنت في الحرم ، كما أذن بالأمس جلال الدين الرومي ، فقد تعلمت منه أسرار الروح والحب ، لقد كان ثائراً على فتن عصره وكنت ثائراً على فتن عصري» .

ويذكر تمرده على العلوم الغربية وتفلته من شباكها ، واحتفاظه بعقيدته ، وايمانه وخصائصه ، ويقول بحق وجدارة : « كنت كطائر يقع على شبكة، فيقرض الحبال، ويأخذ الحب ويطير بسلام » وكذلك كان ، فقد ظفر بلب العلوم الغربية ولبابها ورمى بقشورها وخرج من حبائلها سالماً .

ثم يقول في افتخار واعتزاز : « يعلم الله ! اني دخلت في أعماق هذه العلوم واكتويت بنارها ، من غير أن أرزأ في عقيدتي ، وخلقي وصلتي بك ، وقد جلست في نارها بشجاعة ، وخرجت منها بسلامة ، كما كان شأن ابراهيم ـ عليه السلام ـ مع نار نمرود » .

وهنا يتذكر الشاعر حياته التي قضاها في عواصم

أوربا ، بين الكتب الجافة ، والفلسفة الدقيقة ، والعلم الواسع ، والجمال الفاتن ، والمظاهر الخلابة : فيقول : « لقد بقيت هذه المدة ذاهلا عن نفسي، جاهلا لشخصيتي، حتى لما وقع بصري عليَّ لم أعرف نفسي » .

ويقول : « لقد اقتطفت من علوم الغرب شيئاً كثيراً ، وتناولت من خمر حانته كأسا دهاقا ، يا له من صداع اشتريته ! لقد عشت بين علمائه وفلاسفته ، وبين غيده الحسان ، يالها من فترة مظلمة قضيتها من حياتي! حرمت فيها لذة الحب ونعيم القلب ، ان دروس الحكماء قد صدعت رأسي ، وكدرت بالي ، ذلك لأني نشأت في حضانة الحب والايمان فلا يناسبني ولا يملأ فراغ نفسي الا العاطفة والحنان » .

وهنا يقبل الشاعر الى الطبقة التي تمثل العلم والدين، فينتقد فيها الجفاف ، واتساع العلم وتضخمه على حساب العاطفة والحب ولوعة القلب ، فيقول : **ان العالم الديني لا يحمل هماً ، ان عينه بصيرة ، ولكنها جافة لا تدمع ، لقد زهدت في صحبته لأنه علم ولا هم ، وأرض مقدسة ولا زمزم»** .

لقد شبهه محمد اقبال بالحجاز ، لأنه يحمل علماً كثيراً ، وعقلا كبيراً، ولكنه مع الأسف رمال جافة، وجبال

جرداء ليس فيها زمزم ، ومكة ببيتها وزمزمها ، ليست برمالها وبطحائها وجبالهـا فحسب ، فما أفقر العـالم الديني الذي يحمل علما جماً ، ولساناً بليغا ، وعقـلا مستنيراً ، ولا يحمل دمعة في عينه ، ولا لوعة في قلبه ، انه أخذ من الأرض المقدسة خشونتها وصلابتها ولم يأخذ منها رطوبتها ونداها ·

ثم يحكي عن نفسه ، ويقول : « انني لم أبع نفسي وضميري لأحد ، ولم أستعن بأحد في حل مشاكلي ، ذلك لأني اتكلت على غير الله مرة واحدة ، فسقطت عن مقامي، وعوقبت بالهوان مائتي مرة » ·

ويندفع يشكو عصره ومجتمعه في حزن وألم ، فيقول : « اني أحترق بنار شوقي وحبي ، وأستغرب أني خلقت في عصر لا يعرف الاخـلاص ، ولا يعرف سـوى المادة والأغراض ، في عصر لم يعرف لوعة القلب ولم يذق لذة الحب ، أنا غريب في الشرق والغرب ، أعيش وحدي ، وأغني وحدي، وقد أتحدث الى نفسي وأخفف من أشجاني وآلامي » ·

ويقول : « ان اخواني لم يعملوا بما قلت لهم ، انهم لم يجنوا الرطب من نخل شعري ، اليك أشكو يا سـيد

الأمم ! من أناس لا ينظرون اليّ الا كشاعر أو متغزل ٠

لقد أمرتني يا رسول الله ! أن أبلغ اليهم رسالة الحياة والخلود، وأنشدهم بماينفخ فيهم النشاط والروح، ولكن هؤلاء القساة يقترحون عليّ أن أنوح الأموات في الشعر، وأنظم تاريخ الوفاة، فأين هذا مما أمرتني به؟!» ٠

ويشكو في توجع وحزن عميق ، زهد أبناء عصره في العلم ، الذي كان يحمله ، والرسالة التي يقوم بها في شعره ويقول : « عرضت قلبي عسى أن يستأسره أحد ، فلم أر فيه راغباً ولا له طالبا ، وأبحت ثروتي ، وما يحويه صدري فلم أر لها مقدّراً ، فليعمر حبك قلبي وليشغل حديثك لساني فاني لا أجد في العالم من هو أشد وحدة وأعظم غربة مني » ٠

ويختم قصيدته بأبيات يوجهها الى المرحوم عبد العزيز ابن السعود ـ باعتباره ملك الحجاز في عهده ـ وهو خطاب موجه الى جميع ملوك العرب وزعمائهم وعظمائهم ، يحذره من الاستعانة بالأجانب والدول الأوربية ، ويدعوه الى الاعتماد على الله ثم على ما عنده ، يقول : **« اضرب خيمتك حيث شئت في الصحراء ، ولتكن خيمتك قائمة على عمدك وأطنابك ، ولا تنس أن استعارة الأطناب من الأجانب حرام »** ٠

وفود الأمة بين يدي نبيها (*)

صلى الله عليه وسلم

عفا الله عن المؤرخين والمشتغلين بالتاريخ ، انهم لا يفارقهم الشعور التاريخي والتفكير التاريخي في أقدس مكان وأفضل زمان ، انهم أينما كانوا يعيشون فيما درسوه ويصلون الحاضر بالماضي .

كنت أمس في الروضة في المسجد النبوي ، وحولي جمع حاشد من المصلين والمتعبدين بعضهم في ركوع وبعضهم في سجود ، ولتلاوة القرآن دوي كدوي النحل ، كل ذلك كان جديراً بأن يشغلني عن التفكير في التاريخ وفي رجال الماضي ، ولكن سحابة غشيتني من الذكريات القديمة لم أستطع لها دفعاً ولم أملك لها قهراً .

رأيت كأن عظماء هذه الأمة عاشوا من جديد، وجاؤوا وفوداً يصلون في هذا المسجد العظيم ويسلمون على هذا

★ — حديث أذيع من محطة الاذاعة السعودية العربية في جدة عام ١٩٦٢ م.

النبي الكريم ، ويقومون بواجب الاجلال والتكريم ، والامتنان والاعتراف بالجميل ، يشهدون له على اختلاف طبقاتهم ، بأنه هو الذي أخرجهم باذن الله من الظلمات الى النور ، ومن الشقاء الى السعادة ، ومن عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، ومن جَور الأديان الى عدل الاسلام ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ويشهدون على أنفسهم بأنهم غرس الاسلام وزرع النبوة ، وأنهم ـ لا سمح الله ـ لو تجردوا مما أكرمهم الله به عن طريق هذا النبي ومما أتحفتهم به نبوته ، لعادوا أجساداً بلا روح ، وخطأً بلا وضوح ، ولعادوا الى عهد الظلمات وشريعة الغابات وقانون العصابات ، وانطمست معالم هذه الحضارة .

حانت مني التفاتة فرأيت فريقاً يدخل من باب جبريل ـ وهو أقرب الأبواب اليَّ ـ عليهم السكينة والوقار ، يعلوهم نور العلم وسيما التفكير ، وقد ملأوا الرحاب بين باب جبريل باليسار الى باب الرحمة باليمين ، منعت كثرتهم عن العد والتشخيص ، سألت البواب عنهم، فقال: هؤلاء أعلام الأمة وأئمة العلم وعباقرة الانسانيةونوابغ الوجود، كل واحد منهم امام أمة ومؤسس مكتبة، ومبتكر علم ومربي جيل ، قد خلدت آثارهم فامتدت على العصور والآفاق ، وسارت في ضوء علومهم واجتهادهم وتحقيقهم الأجيال بعد الأجيال، وقد سمَّى منهم على عجل واحتشام،

مالك بن أنس ، وأبا حنيفة النعمان ، ومحمد بن ادريس الشافعي ، وأبا عبد الله أحمد بن حنبل ، وليث بن سعد المصري ، وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي ، ومحمد بن اسماعيل البخاري ، ومسلم بن حجاج القشيري ، ومحمد ابن محمــد الغزالي ، وتقي الدين بن تيمية ، وموفق الدين بن قدامة ، وأبا اسحاق الشاطبي ، وكمــال بن الهمام ، وأحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، على تفاوتهم في الزمان والمكان ، وأصالة العلم وعلو الشان •

رأيتهم بدأوا بتحية المسجد وصلوا ركعتين في خشوع وقنوت ، ثم تقدموا الى القبر الشريف في أدب وتواضع، وسلموا على نبيهم صلى الله عليه وسلم في كلمات وجيزة المباني ، كثيرة المعاني ، عميقة الجذور ، سامقة الذرى وكأني أسمعهم يقولون ، وفي عيونهم دموع وفي صوتهم خشوع : « **لولاك يا رسول الله ، ولولا شريعتك السمحة الواســعة الخــالدة مع الزمــان ، ولولا أصولها المفتّقة للقرائح ، ووضعها الحكيم المعجز ، الباعث على التفكير والتفريع ، ولولا حاجة الانسان اليها في كل زمان ومكان، لما دون هنا هذا الفقه العظيم، وهذا التشريع الحكيم الذي لا تحمله أمة من الأمم ومجتمع من المجتمعات البشرية ، ولما نشأت هذه المكتبة الدينية التي تتضاءل أمامها كل**

مكتبات العالم الدينية ، ولولا جهادك في سبيل نشر العلم والحث على استعمال العقل والتدبر في آيات الله لما عاش العلم وانتشر هذا الانتشار الواسع ، ولما أطلق العقل الانساني من اساره وسار العالم في آثاره » ٠

ولم أكن قد قضيت لبانتي من هذه الجماعة حتى لفت نظري فريق آخر يدخل من باب الرحمة ، عليهم سيما الصلاح والعبادة ، وفي وجوههم أثر التقشف والزهادة ، قيل لي : ان فيهم الحسن البصري، وعمر بن عبد العزيز، وسفيان الثوري، والجنيد البغدادي، والفضيل بن عياض، وداود الطائي ، وابن السماك ، وعبد القادر الجيلاني، ونظام الدين البدايوني (١)، وعبد الوهاب المتقي (٢) ، وأضرابهم ، اقتدوا بالأولين ، وتقدموا بعد الصلاة ، ووقفوا أمام المدفن الشريف ، يصلون على نبيهم وامامهم وقدوتهم ، ويقولون : « **لولا المثل العملي الذي ضربته في حياتــك ، ولولا منارك الذي أقمته لمن يأتي بعدك يا رســول الله ، ولولا قولك : «اللهم لا عيش الا عيش الآخرة » ووصيتك « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » ولولا حياتك التي وصفتها لنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، « وطلوع هلال بعد هلال ومرور شهر**

(١ــ٢) عالمــان ربانيان ، ومن كبار الزهــاد والمربين ، ولدا ونشآ في الهند ٠

بعد شهر لا توقد في بيتك نار ولا تنصب لها قدر » لما كان لنا أن نؤثر الآخرة على الدنيا ، وأن نكتفي ببلغة من العيش وكفاف من الزاد ، ولما كان لنا أن نتمرد على الشهوات ونقاوم اغراء الأموال والمناصب والحكومات ، في غير تحريم لما أحل الله من الطيبات ، ومن غير تحقير لما مَنَّ الله علينا من النعيم ، ووسع لنا في الحياة ، ولكنه ايمان المؤمن وايثار للآخرة ونعيمها على الحياة الدنيا وطيباتها ، وعزوف عن الشهوات ، وكراهة للتكالب على حطام الدنيا » .

ولم أستوف كلماتهم الحكيمة المرققة حتى لفت نظري فريق يدخل من باب النساء في حشمة وتستر ، بعيد عن كل ما ينافي الاسلام وآدابه من الزينة الظاهرة والتبرج ، وتقدم هذا الفريق من المسلمات الصالحات ، من شعوب مختلفة وبلاد متنائية ، من عجميات وعربيات ، وشرقيات وغربيات ، وتكلمن في صوت خافت ،وأدب ظاهر : **« نصلي ونسلم عليك يا رسول الله ! تسليم من عظمت عليه منتك ، فقد أنقذتنا باذن الله وحوله من تقاليد الجاهلية وظلم المجتمع ، وجَور الرجال ، وحرمت وأد البنات ، وحذرت من عقوق الأمهات ، وقلت : « الجنة تحت أقدام الأمهات » وأشركتنا في الارث وبينت نصيبنا أماً وأختا وبنتا وزوجا ، ولم تنسنا في خطبتك العظيمة**

يوم عرفة، فقلت : «فاتقوا الله في النساء فانكم أخذتموهن بأمان الله » الى غير ذلك مما حثثت به الرجال على الانصاف للنساء وأداء حقوقهن وحسن عشرتهن ، جزاك الله عن جنسنا أفضل ما يجزي الأنبياء والمرسلين وعباد الله المحسنين » .

ولم ينقطع عن أذني هذا الصوت الرخيم حتى سمعت حسيس قوم يدخلون من باب السلام ، والتفت اليهم فاذا هم مبتكرون للعلوم ومدونون للفنون، أئمة النحو واللغة والبلاغة ، فيهم أبو الأسود الدؤلي ، والخليل بن أحمد ، وسيبويه ، والكسائي، وأبو علي الفارسي، وعبد القاهر الجرجاني ، والسكاكي ، وابن منظور ، ومجد الدين الفيروز آبادي ، وسيد مرتضى الزبيدي ، يريدون أن يبلغوا تحية علومهم ويدفعوا ضريبة ما عاشوا عليه واشتهروا به ، وسمت مكانتهم بفضله، وسمعتهم يقولون في بلاغة وأدب : **لولاك يا رسول الله ولولا الكتاب الذي نزل عليك ، ولولا حديثك الذي نطقت به ، ولولا هذه الشريعة التي دانت بها الأمم ، واحتاجت لأجلها الى تعلم اللغة العربية والتفقه فيها ، لما نشأت هذه العلوم التي كتب لنا شرف الزعامة فيها ، ولما كان نحو ولا بيان ولا بلاغة ، ولما ألفت هذه المعاجم الكبيرة ودقق في مفردات اللغة العربية ، ولما جاهدنا في سبيلها هذا الجهاد الطويل،**

ولما خضع العجم وهم في سعة من لغاتهم ، وغبطة بلهجاتهم لدراسة اللغة العربية والتعمق فيها ، ولما كان منهمهؤلاء الأعلام الذين أقر بفضلهم ونبوغهمأدباء العرب وجهابذة الأدب ، فأنت الرابطة يا رسول الله ! بيننا وبين هـذه العلوم الناشئة في الاسـلام ، النابتة في عهد رسـالتك وامامتـك ، وأنت الرابطة بين العرب والعجم • وأنت الذي ملأ الله بك هذا الفراغ ، ووصل البعيد بالقريب ، والعجمي بالعـربي ، فكم لك من فضـل عـلى نبوغنـا وعبقريتنـا ، وكم لك من فضل على ثروة العلم ونتاج العقول ومحصول الأقلام •

ولولا أنت يا رسول الله ! لطويت اللغة العربية فيما طوي من اللغات واندرس من اللهجـات ، ولولا القرآن العظيم العربي المبين لتناولها المسخ والتحريف كما تناول اللغات الكثيرة ، وابتلعتهاالعجمة واللهجات المحلية وقضى عليها اللحن ، ولكنه هو وجودك وشريعتكالخالدة ودينك العالمي وكتابالله المعجز الذي منعها من العفاء والدروس، وفرض سلطانها وسيطرتها على العالم الاسلامي كله ، وغرس حبها واجلالها في قلب كل مسلم ، فأنت الذيخلد الله بك هذه اللغة وضمن بقاءها وانتشارها وسلامتها ، فلك على كل من ينطق بها أو يكتب فيها أو يعيش بها أو ينادي اليها فضل لا يجحد » •

ولم أنتبه من مقـالتهم حتى اسـترعى انتباهي قوم يدخلون من باب عبد العزيز ، خليط من البشر ، ومزيج من الأمم ، فيهم أعظم سلاطين العالم وأعظم ملوك عرفهم التاريخ ، فيهم الوليد بن عبد الملك ، وهارون الرشيد ، ومحمود الغزنوي ، وملك شاه السلجوقي، وصلاح الدين الأيوبي، والظاهر بيبرس، وسليمان القانوني العثماني، وأورنك زيب عالمكير التيموري الهندي، وقد نحَّوا الخدم ورجال الشرطة عنهم وتركوهم وراء الباب ، يتقدمون في هيبة وتواضع ، غضيضة أبصارهم ، خافتة أصواتهم، واستعرضت أسماءهم وأدوارهم والدنيا الواسعة التي كانوا يحكمونها والسيطرة العظيمة التي كانوا يتمتعون بها ، فمنهم من كان يحكم دولة لا تقطع في أقل من خمسة أشهر على أسرع جمل[1] ، ومنهم من قال مرة لسحابة مرت به : « أمطري حيث شئت ... فسيأتيني خراجك »[2] ومنهم من اتسعت مملكته حتى استطاع أن يأمر بأن يدفع الى أصحاب سفن جيحون أقصى الشرق أجرتهم من مالية أنطاكية في أقصى غرب المملكة ، وحضر رسول القيصر ليدفع اليه الخراج فما تسلم منه الا على باب كاشغر[3]

---

١ ــ المراد به الوليد بن عبد الملك .

٢ ــ المراد به هارون الرشيد .

٣ ــ هو ملك شاه بن ألب أرسلان السلجوقي .

ومنهم من كان يرهب في أوربا ، وتمتنع الكنائس من ضرب الأجراس ، اذا دخل المسلمون في بلادهم احتراماً لدينهم واشفاقاً من سلطانهم [1] ، ومنهم ومنهم ومنهم •

رأيتهم يتقدمون ليصلوا في مسجد الرسول ، ويسلموا على صاحبيه ، يعتبرون ذلك أعظم سعادة لهم وأكبر شرف ويتمنون لو رفعت هذه الصلاة ولو قبل هذا التسليم ويسمح لهم بالوقوف في مصلاه ، والوقوف أمام مرقد الرسول يقومون بواجب الاجلال والتكريم ، والاعتراف بالجميل ، رأيتهم يتقدمون الى الأمام تقصر خطاهم ، وتتعثر أقدامهم ، والمهابة تملأ قلوبهم حتى وصلوا الى الصفة ـ وهو مكان فقراء الصحابة ـ ووقفوا أمامها ينظرون اليها نظر الاكبار والاجلال ، ونظر الحياء والاحتشام ، وصلوا بجوارها تحية للمسجد ، ثم تقدموا الى القبر الشريف فسلموا على نبيهم كما شاء حبهم واجلالهم وكما شاء علمهم وايمانهم ، متأدبين بآداب الشرع ، متقيدين بشريعة التوحيد ، وسمعتهم يقولون : **« لولاك يا رسول الله ! ولولا جهادك ودعوتك التي وسعت الآفاق وفتحت البلاد ، ولولا دينك الذي آمن به آباؤنا فخرجوا به من حياة الخمول والهوان والعزلة عن العالم**

---

١ ـ هو سليمان بن سليم العثماني •

الى حياة الشرف والطموح والمغامرة، فأسسوا دولا واسعة وفتحوا بلاداً شاسعة، وجبوا الخراج من الأمم التي كانت تسوقهم بالعصا وترعاهم كالغنم ، فلولا هذا الانتقال من الجاهلية الى الاسلام ومن الانطواء على النفس والحياة القبلية الضيقة الى غزو العالم وفتح الأمم لما ارتفعت لنا راية ، ولا رويت لنا رواية ، ولبقينا في صحارينا القاحلة وفي أوديتنا الضيقة المظلمة ، نتصارع ونتناحر ، يأكل القوي منا الضعيف ويظلم الكبير منا الصغير، طعامناأفقر طعام ، وعيشنا أخس عيش ، لا نفكر في مكان أوسع من هذه القرية الصغيرة التي نعيش فيها ولا في مجموع من البشر أكبر من هذه القبيلة الصغيرة التي نرتبط بها ، أسماك بركة وضفادع بئر ، نعيش في عالم من نفوسنا وتجاربنا المحدودة ونغني بمجد آبائنا الجهلاء السفهاء ، ولكنك يا رسول الله! ألقيت علينا ضوءاً من دينك تفتحت به عيوننا ، وتوسع به خيالنا ، فخرجنا الى أرض الله الواسعة نحمل دينه الواسع ، ورابطته الجامعة ، وأشعلنا مواهبنا الخامدة الجامدة ، نحـارب الشرك والوثنية ، والجهالة والظلم ، فأسسنا هذه الدول العظيمة ونعمنا ونعم أولادنا واخواننا في ظلها قروناً ، وها نحن أولاء ، نقدم اليك تحياتنا ونقدم اليك ضريبة الاجلال والتكريم

والحب والتعظيم ، وهي ضريبة نقدمها طوعاً واختياراً ونتشرف بتقديمها ونعترف بتقصيرنا في جنب دينك الذي أسعدنا الله به وتطبيق أحكامه وتنفيذ قانونه ، ونستغفر الله تعالى ، انه هو الغفور الرحيم » .

وقد كنت مصروفاً الى هؤلاء الملوك ، أرى وجوههم الخاشعة وأسمع كلامهم الرقيق ، الذي لم أسمعه أبداً منهم ، اذ تقدم فريق آخر مشى في صفوف الملوك من غير اكتراث واهتمام ، لا يخشى لهم سطوة ولا يراعي لهم حرمة ، فقلت شاعر أو ثائر ، فاذا هو مجموع من الفريقين ، فيهم السيد جمال الدين الأفغاني ، والأمير سعيد حليم ، والزعيم محمد علي الهندي ، والشهيد حسن البنا ، والشاعر التركي محمد عاكف ، والشاعر محمد اقبال ، وقدموا الأخير ترجماناً لهم يقول : « **أشكو اليك يا رسول الله ! من قوم لا يزالون يعيشون في رفدك ، ويأكلون من فتات مائدتك ، وينعمون بالحرية والشرف في بلاد أنت حررتها من حكومة الظالمين وأخرجتها الى ضوء الشمس ، انهم يحاولون أن ينقضوا الأساس الذي قامت عليه هذه الأمة العظيمة ، وهذا الصرح العظيم ، ويريدون أن يوزعوا أمتك الواحدة في قوميات وعصبيات كثيرة ، ويحيوا ما أمته ويبنوا ما هدمته ، ويرجعوا بهذه الأمة الى الجاهلية التي أخرجتها منها للأبد ، ويقلدوا في ذلك**

أوربا التائهة الحائرة المفلسة ، ويبدلوا نعمة الله كفراً ويحلوا قومهم دار البوار ، ان الصراع بين مصباحك المنير وشرارة أبي لهب قد عاد من جديد ، وقد انضم الى معسكر أبي لهب كثير من الناطقين بلغتك • وعادوا يتغنون بأمجادهم الجاهلية والأصنام التي حطمتها، انهم المطففون الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، نالوا منك كل بر عاشوا به ، وكل قوة اعتزوا بها ، ثم انهم يأخذون بنواصي شعوبهم التي يحكمونها ويريدون أن يلقوها في أحضان أوربا وفلسفاتها الجاهلية من قومية واشتراكية وشيوعية •

ها هي الأوثان التي أخرجتها من جوف الكعبة تعود أو تعاد الى الشعوب المسلمة السليمة البريئة بأسماء جديدة وبثياب جديدة ، اني أرى في بعض أجزاء العالم العربي الذي يجب أن يكون معسكرك ثورة لا فاروق لها ، وردة لا أبا بكر لها • مني ومن جميع أصحابي الذين أتشرف بتمثيلهم والتعبير عما في ضمائرهم اليك أفضل التحيات وأشرف التسليمات ، وأؤكد لك وأشهد الله على ما أقول اننا براء من الزعماء والعظماء الذين ولوا وجوههم شطر الغرب وانصرفوا عن قبلة الاسلام وشطره، والذين لا صلة لهم بك ولا شأن لهم بدينك ، اننا ندين لك

بالولاء والوفاء وسنظل متمسكين بحبل الاسلام حتى يأتي وعد الله ونلقى ربنا» .

ولم تنته هذه الكلمة المؤمنة البليغة حتى ارتفع صوت المؤذن عالياً على منائر مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، وأفقت من غفوتي وما كنت أسبح فيه من عالم الخيال والتاريخ ، واذا بي أمام الواقع ، رجال في الصلاة ، ورجال في تلاوة القرآن ، وجموع من المسلمين ووفود من العالم الاسلامي، تسلم على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وخليط من الأصوات والانطباعات والعواطف .



من غار حراء (★)

طلعت جبل النور ووقفت على غار حراء وقلت لنفسي: هنا أكرم الله بالرسالة محمداً صلى الله عليه وسلم ، ونزل عليه الوحي الأول ، فمن هنا طلعت الشمس التي أفاضت على العالم نوراً جديداً وحياة جديدة ، ان العالم ليستقبل كل يوم صباحاً جديداً ، وما أكثر ما استقبل العالم صباحا لا جدة فيه ولا طرافة ، ولا خير فيه ولا سعادة ، وما أكثر ما استقبل العالم صباحاً استيقظ فيه الانسان ولم تستيقظ فيه الانسانية ، واستيقظت فيه الأجسام ولم تستيقظ فيه القلوب والأرواح ، وما أكثر النهار المظلم والصبح الكاذب في تاريخ العالم، ولكن من هنا طلع الصبح الصادق الذي أشرق نوره على كل شيء، واستيقظ فيه الكون وتغير مجرى التاريخ ٠

لقد كانت الحياة كلها أقفالا معقّدة وأبواباً مقفلة ، كان العقل مقفلا أعيا فتحه الحكماء والفلاسفة ، كان

★ ــ حديث أذيع من محطة الاذاعة السعودية بمكة عام ١٩٥٠ م٠

الضمير مقفلا أعيا فتحه الوعاظ والمرشدين ، كـانت القلوب مقفلة أعيا فتحهاالحوادث والآيات، كانتالمواهب مقفلة أعيا فتحها التعليم والتربية ، والمجتمع والبيئة ، كانت المدرسة مقفلة أعيا فتحها العلماء والمعلمين ، كانت المحكمة مقفلة أعيا فتحها المتظلمين والمتحاكمين ، كانت الأسرة مقفلة أعيا فتحها المصلحين والمفكرين ، كان قصر الامارة مقفلا أعيا فتحه الشعب المظلوم والفلاح المجهود والعامل المنهوك ، وكانت كنوز الأغنياء والأمراء مقفلة أعيا فتحها جوع الفقراء وعري النساء وعويل الرضعاء، لقد حاول المصلحون الكبار والمشـترعون العظام فتح قفل من هذه الأقفال ، فخابوا وأخفقوا ، فان القفل لا يفتح بغير مفتاحه ، وقد ضيَّعوا المفتاح من قرون كثيرة، وجربوا مفاتيح من صناعتهم ومعادنهم، فاذا هي لاتوافق الأقفال ، واذا هي لا تغني عنهم شيئاً ، وحاول بعضهم كسر هذه الأقفال فجرحوا أيديهم وكسروا آلاتهم .

ففي هذا المكان المتواضع، المنقطع عن العالم المتمدن، على جبـل ليس بمخصب ولا بشـامخ ، تم ما لم يتم في عواصم العالم الكبيرة ، ومدارسه الفخمة ، ومكتباتـه الضخمة ، هنا مَنَّ الله على العالم برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي رسـالته عاد هذا المفتـاح المفقود الى الانسانية ، ذلك المفتاح هو الايمان بالله والرسول واليوم

الآخر ، ففتح به هذه الأقفال المعقّدة قفلا قفلا ، وفتح به هذه الأبواب المقفلة بابا باباً ، وضع هـذا المفتاح النبوي على العقل الملتوي فتفتح ونشـط واستطاع أن ينتفع بآيات الله في الآفاق والأنفس، ويتوصل من العالم الى فاطره ، ومن الكثرة الى الوحدة ، ويعرف شناعة الشرك والوثنية والخرافات والأوهام ، وكان قبل ذلك محامياً مأجوراً يدافع عن كل قضية حقا وباطلا ٠

وضع هذا المفتاح على الضمير الانساني النائم فانتبه، وعلى شـعوره الميت فانتعش وعاش ، وتحولت النفس الأمارة بالسوء الى نفس لوامة ، ثم الى نفس مطمئنة ، لا تسيغ الباطل ولا تتحمل الاثم حتى يعترف الجاني أمام الرسول بجريمته ، ويلح على العقاب الأليم الشـديد ، وترجع المرأة المذنبة الى البادية حيث لا رقابة عليها ، ثم تحضر المدينة وتعرض نفسها للعقوبة التي هي أشد من القتل ، ويحمل الجندي الفقـير تاج كسرى ويخفيه في لباسه ليستر صلاحه وأمانته عن أعين الناس ، ويدفعه الى الأمير لأنه مال الله الذي لا تجوز الخيانة فيه ، كـانت القلوب مقفلة لا تعتبر ولا تزدجر ، ولا ترق ولا تلين ، فأصبحت خاشعة واعية تعتبر بالحوادث ، وتنتفع بالآيات وترق للمظلوم ، وتحنو على الضعيف ٠

وضع هذا المفتاح على القوى المخنوقة والمواهب الضائعة ، فاشتعلت كاللهيب، وتدفقت كالسيل، واتجهت الاتجاه الصحيح ، فكان راعي الابل راعي الأمم وخليفة يحكم العالم ، وأصبح فارس قبيلة وبلد قاهر الدول وفاتح الشعوب العريقة في القوة والمجد .

وضع هذا المفتاح على المدرسة المقفلة وقد هجرها المعلمون وزهد فيها المتعلمون ، وسقطت قيمة العلم وهان المعلم ، فذكر من شرف العلم وفضل العالم والمتعلم ، والمربي والمعلم ، وقرن الدين بالعلم حتى كانت له دولة ونفاق، وأصبح كل مسجد من المساجد وكل بيت من بيوت المسلمين مدرسة ، وأصبح كل مسلم متعلماً لنفسه، معلما لغيره ، ووجد أكبر دافع الى طلب العلم والدين .

وضعه على المحكمة المقفلة فأصبح كل عالم قاضياً عادلا ، وكل حاكم مسلم حكما مقسطا ، وأصبح المسلمون قوّامين لله شهداء بالقسط ، وجد الايمان بالله وبيوم الدين ، فكثر العدل وقل الجدل ، وفقدت شهادة الزور والحكم بالجَور .

وضعه على الأسرة المقفلة وقد فشا فيها التطفيف بين الوالد وولده ، والأخ واخوته ، والرجل وزوجه، وتعدى

من الأسرة الى المجتمع، فظهر بين السيد وخادمه، والرئيس والمرؤوس ، والكبير والصغير ، كل يريد أن يأخذ ما له ولا يدفع ما عليه ، وأصبحوا مطففين ، اذا اكتالوا على الناس يستوفون ، واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، فغرس في الأسرة الايمان ، وحذرها من عقاب الله وقرأ عليها قول الله : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيباً » [1] وقسم المسؤولية على الأسرة والمجتمع كله فقال : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » [2] .

وهكذا أوجد أسرة عادلة متحابة مستقيمة ، ومجتمعاً عادلا ، وأوجد في أعضائه شعوراً عميقاً بالأمانة ، وخوفا شديداً من الآخرة ، حتى تورع الأمراء وولاة الأمور وتقشفوا ، وأصبح سيد القوم خادمهم ، ووالي الأمة كولي اليتيم ، ان استغنى استعف ، وان افتقر أكل بالمعروف . وأقبل الى الأغنياء والتجار فزهدهم في الدنيا ورغبهم في الآخرة ، وأضاف الأموال الى الله ، فقرأ :

---

١ ـ الآية ١ من سورة النساء .

٢ ـ حديث صحيح .

« وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه »[1] وقرأ « وآتوهم من مال الله الذي آتاكم »[2] وحذرهم من الاكتناز وادّخار الأموال وعدم الانفاق في سبيل الله، فقرأ عليهم : «والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها في سبيل الله ، فبشرهم بعذاب أليم • يوم يُحمَى عليها في نار جهنم ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون[3] •

أبرز رسول الله صلى الله عليه وسلم برسالته ودعوته الفرد الصالح المؤمن بالله ، الخائف من عقاب الله، الخاشع الأمين ، المؤثر للآخرة على الدنيا ، المستهين بالمادة المتغلب عليها بايمانه وقوته الروحية ، يؤمن بأن الدنيا خلقت له وأنه خلق للآخرة ، فاذا كان هذا الفرد تاجراً فهو التاجر الصدوق الأمين ، واذا كان فقيراً فهو الرجل الشريف الكادح ، واذا كان عاملا فهو العامل المجتهد الناصح ، واذا كان غنياً فهو الغني السخي المواسي ، واذا كان قاضياً فهو القاضي العادل الفهم ، واذا كان والياً فهو الوالي المخلص الأمين ، واذا كان سيداً رئيسا

---

١ ـ الآية ٧ من سورة الحديد •

٢ ـ الآية ٣٢ من سورة النور •

٣ ـ الآية ٣٥ من سورة التوبة •

فهو الرئيس المتواضع الرحيم ، واذا كان خادما أو أجيراً فهو الرجل القوي الأمين ، واذا كان أميناً للأموال العامة فهو الخازن الحفيظ العليم • وعلى هذه اللبنات قام المجتمع الاسلامي وتأسست الحكومة الاسلامية في دورها ، ولم يكن المجتمع والحكومة بطبيعة الحال الا صورة مكبَّرة لأخلاق الافراد ونفسيتهم ، فكان المجتمع مجتمعاً صالحا أمينا مؤثراً للآخرة على الدنيا، متغلباً على المادة غير محكوم لها ، انتقل اليه صدق التاجر وأمانته ، وتعفف الفقير وكدحه ، واجتهاد العامل ونصحه ، وسخاوة الغني ومواساته ، وعدل القاضي وحكمته ، واخلاص الوالي وأمانته ، وتواضع الرئيس ورحمته ، وقوة الخادم وحراسة الخازن ، وكانت هذه الحكومة حكومة راشدة ، مؤثرة للمبادىء على المنافع ، والهداية على الجباية ، وبتأثير هذا المجتمع وبنفوذ هذه الحكومة وجدت حياة عامة كلها ايمان وعمل صالح ، وصدق واخلاص ، وجد واجتهاد ، وعدل في الأخذ والعطاء وانصاف مع النفس والغير •

وقد ذهلت في حديثي لنفسي ، وتمثلت لي الحياة الاسلامية الأولى بجمالها وتفاصيلها كأني أشاهدها وأتنفس في جوها ، وانقطعت الصلة بيني وبين العالم المعاصر •

وحانت مني التفاتة الى هذا العصر الذي نعيش فيه، فقلت اني لأرى أقفالا جديدة على أبواب الحياة الانسانية، وقد قطعت الحياة مراحل طويلة وخطت خطوات واسعة، وتعقدت الحياة ، والتوت ، وتطورت المسائل وتنوعت، وتساءلت هل يمكن فتح هذه الأقفال الجديدة بذلك المفتاح العتيق ؟ وأبيت أن أحكم بشيء حتى أختبر هذه الأقفال وأضع عليها المفتاح ، ولمست هذه الأقفال بالبنان فاذا هي الأقفال القديمة بتلوين جديد ، واذا المشاكل نفس مشاكل العصر القديم، واذا المشكلة الكبرى وأساس الأزمة هو الفرد الذي لا يزال لبنة المجتمع وأساس الحكومة ، ووجدت أن هذا الفرد قد أصبح اليوم لايؤمن الا بالمادة والقوة ، ولا يعنى الا بذاته وشهواته ، وانه يبالغ في تقدير هذه الحياة ويسرف في عبادة الذات وارضاء الشهوات ، وقد انقطعت الصلة بينه وبين ربه ورسالة الأنبياء وعقيدة الآخرة، فكان هذا الفرد هو مصدر شقاء المدنية ، فاذا كان تاجراً فهو التاجر المحتكر النهم الذي يحجب السلع أيام رخصها ، ويبرزها عند غلائها ، ويسبب المجاعات والأزمات ، واذا كان فقيرا فهو الفقير الثائر الذي يريد أن يتغلب على جهود الآخرين بغير تعب ، واذا كان عاملا فهو العامل المطفف ، الذي يريد أن يأخذ ماله ولا يدفع ما عليه ، واذا كان غنياً ، فهو

الغني الشحيح القاسي الذي لا رحمة فيه ولا عطف ، واذا كان والياً ، فهو الوالي الغـاش الناهب للأموال ، واذا كان سيداً فهو الرجل المستبد المستأثر الذي لا يرى الا فائدتـه وراحته ، واذا كـان خـادماً فهو الضعيف الخائن ، واذا كان خازنا فهو السارق المختلس للأموال ، واذا كان وزير دولةأو رئيس وزارة أو رئيسجمهورية، فهو المادي المستأثر الذي لا يخدم الا نفسه وجماعته ولا يعرف غيره ، واذا كان زعيماً أو قائداً فهو الوطني أو القومي الذي يقدس وطنه ويعبد عنصره ويدوس كرامة البلاد الأخرى والشعوب الأخرى ، واذا كان مشترعاً فهو الذي يسن القوانين الجائرة والضرائب الفادحة ، واذا كان مخترعا اخترع المدمرات والناسـفات ، واذا كان مكتشفاً اكتشف الغازات المبيدة للشعوب المخربة للبلاد ، والقنبلة الذرية ، التي تهلك الحرث والنسل ، واذا كان فيه قوة التطبيق والتنفيذ، لم ير بأساً بالقاء هذهالقنابل على الأمم والبلاد ٠

وبهؤلاء الأفراد تكوّن المجتمع وتأسست الحكومة ، فكان مجتمعاً ماديا اجتمع فيه احتكار التـاجر ، وثورة الفقير ، وتطفيف العامل ، وشح الغني ، وغش الوالي ، واستبداد السيد، وخيانة الخادم، وسرقةالخازن، ونفعية الوزراء ، ووطنية الزعماء، واجحاف المشترع، واسراف

المخترع والمكتشف ، وقسوة المنفذ ، وبهذه النفسيات المادية تولدت أزمات طريفة ومشاكل معقدة ، تشكو منها الانسانية بثها وحزنها ، كالسوق السوداء وفشو الرشوة والغلاء الفاحش واختفاء الأشياء والتضخم النقـدي ، وأصبح المفكرون والمشترعون لا يجدون حلا لهذه المشاكل وأصبحوا اذا خرجوا من أزمة واجهوا أزمة أخرى ، بل ان حلولهم القاصرة ومعالجاتهم المؤقتة هي التي تسبب أزمات جديدة . وتنقلوا من حكومة شخصية الى ديمقراطية ، الى دكتاتورية ثم الى ديمقراطية ، ومن نظام رأسمالي الى نظام اشتراكي الى شيوعي ، واذا الوضع لا يتغير لأن الفرد الذي هو الأساس لا يتغير ويجهلون أو يتجاهلون في كل ذلك أن الفرد هو الفاسد المعوج ، ولو عرفوا أن الفرد هو الأساس وأنه فاسد معوج لما استطاعوا اصلاحه وتقويمه ، لأنهم ـ على كثرة مؤسساتهم العلمية ودور التعليم والتربية والنشر ـ لا يملكون ما يصلحون بـه الفرد ويقومون اعوجاجه ، ويحولون اتجاهه من الشر الى الخير ومن الهدم الى البناء ، لأنهم أفلسوا في الروح وتخلوا عن الايمان ، وفقدوا كل ما يغذي القلب ويغرس الايمان ويعيد الصلة بين العبد وربه ، وبين هذه الحياة والحياة الأخرى ، وبين المادة والروح وبين العلم والأخلاق ، وفي الاخير أدى بهم افلاسهم الروحي وماديتهم العمياء

واستكبارهم الى استعمال آخر ما عندهم من آلاتالتدمير، التيتبيد شعباً بأسره وتخرببقطراً بطوله، حتىاستهدفت الحضارة والحياة البشرية ـ اذا تبادلت الدول المتحاربة استعمال هذه الآلات ـ للنهاية الأليمة .



ميلاد عالم جديد (*)

اذا تساءلنا ما هو اليوم ـ من أيام التاريخ ـ الذي يستحق من الانسانية أعظم تقدير واجلال ، ويستحق أن يذكر فلا ينسى ، ويستحق أن يعتبر اليوم الخالد والخط الفاصل في أدوار التاريخ ، وبين عهد وعهد ، بل بين عالم وعالم ؟

واذا تساءلنا ما هو اليوم الذي تشترك في اجلاله والاحتفال به وابداء السرور فيه الانسانية على اختلاف طبقاتها ، واختلاف أممها وشعوبها ، واختلاف نزعاتها وفلسفاتها ، لأنها سعدت فيه بعد شقاء طويل ، ونهضت فيه بعد عثرة دامت قروناً ٠

واذا تساءلنا ما هو اليوم الذي يعتبر ميلاد العالم الجديد ، وفاتحة العهد السعيد ، ورمز انتصار الفضيلة على الرذيلة ، وقوى الخير على قوى الشر ، والعدل والمساواة ، والرحمة والمواساة ، على الشقاوة والقساوة، والهمجية والضراوة ، وانتصار الحياة المنظمة والشريعة

★ ـ حديث أذاعته محطة دلهي الهند بمناسبة شهر ربيع الأول ٠

الكاملة على شريعة الغابات وقانون العصابات، وبالاختصار انتصار العلم والايمان على الجاهلية بأوسع معانيها انتصاراً خالداً ٠

واذا تساءلنا ما هو اليوم الذي ولدت فيه قوة جديدة نشيطة لمكافحة الشر وصد تيار الفساد ، لتكوين المجتمع الجديد القائم على الايمان والعمل الصالح والتقوى وخدمة الانسانية ، مؤلفة من أفضل رجال « أقل الناس تكلفاً ، وأبرهم قلوبا ، وأعمقهم علماً (١) » يغامرون بحياتهم وامكانياتهم وما هم فيه من رفاهية وسعة عيش وهناء بال في سبيل سعادة المجموع البشري، واخراجه من ظلمات العصر القديم الى نور العصر الجديد، ومن عبادة الناس جميعاً الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ويتحملون في سبيله كل غائلة وخسارة وكل تطور وانقلاب ، لا يثنيهم عن ذلك عداء أو خلاف، ولا يحملهم على عكس ذلك وداد أو صداقة « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » (٢) ٠

---

١ ــ من كلام سيدنا عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف الصحابة ٠

٢ ــ الآية ٥٤ من سورة المائدة ٠

واذا تساءلنا ماهو اليوم الذي ولدت فيه الأمة العربية ولادة جديدة ، بل ولدت فيه لأول مرة وظهرت على مسرح التاريخ أول مرة ، واستحقت أن تسمى « الأمة » أول مرة ، فقد عاشت قبل ذلك قبائل متشــتتة ، وعصابات متناحرة ، وسيادات متحاربة ، وشعباً يعيش على حاشية الأمم ، وفي عزلة عن العالم ، لاشأن له في مجاري الأمور أو مصير الأمم ، وسياسة الدول ومناهج الحياة ، وأخلاق المجتمعات ، واتجاه الانسانية وميولها ، ولا سهم له في المكتبة العالمية ، غير قصائد قيلت في حوادث محلية وأغراض تافهة ، تجلت فيها عبقريته اللغوية ، وحريته الفردية ، وقوتــه في التعبير وسعة لغته ، يقولها فتنتشر في باديته وحواضره ، وتبلغ أوج التقدير والاحترام ، فتعلّق في الكعبة من غير أن يطلع عليها الأدباء والمثقفون في خارج الجزيرة العربية أو تنقل الى لغات العالم المتمدن ، ويعرف هذا الشعب بصدق لهجته وقوة عارضته وجودة خياله وشغفه بالحرية والمساواة والبساطة والتقشف في الحياة ، وشدة القتال في الحروب وحسن الثبات ، والمحافظة على الأنساب ، أفضل أخلاق وسجايا ومواهب يعرف بها شعب من شعوب البادية ، فاذا بهذا الشعب المنطوي على نفسه القــابع في بطــون جزيرته ، يصبح أمة تقرر مصير الأمم ، وتغير اتجــاه العالم ، وتفرض على المجتمع الانساني مدنيتها المقتبسة من الدين الجديد ، المتشبعة بروح التقوى والأمانــة ،

وتصبح لغتها المحصورة في جزيرتها لغة العالم الجديد المقدسة ، يحرص على دراستها واتقانها والتفنن في علومها وآدابها كبار الأذكياء في العالم ، وتصبح معرفتها والتفقه فيها واجباً من واجبات الدين وشعاراً من شعائر المتدينين ، لا يبلغ بغيرها رجل الى ذروة الشرف، ولا يقلد منصباً من المناصب في القضاء والفتوى والتعليم ٠

واذا تساءلنا ما هو اليوم الذي تجدد فيه الأمل في الانسانية ومستقبلها ، وغلب التفاؤل على التشاؤم المؤسس على المآسي والمهازل ، التي قام بها الانسان في كل بقعة من بقاع البسيطة ، وفي كل أمة من الأمم ، والمؤسس على سخافة الانسان في العقل والعقيدة والعمل، ومحاولته لتدمير المدنية وعبادة الانسانية ، حتى يئس الانسان نفسه من مستقبله ، وحرم نفسه حق البقاء وجدارة الحياة ، واستحق العقوبة العاجلة وانقراض الجيل الانساني ، ولكن بطلوع فجر هذا اليوم استحق أن يفسح في أجله ، ويمد في حياته ، ويعتمد عليه في بناء المجتمع الجديد ، وفي احياء ما اندرس من الفضائل والمعاني السامية ، وفي اعادة كرامة الانسان الى الانسان، وفي الأخذ على يد الظالم والانتصار للمظلوم ، وفي الحياة الجديدة التي تليق بشرفه وتتفق مع غاية خلقه ، ومع أهداف هذا الكون، وكان هذا اليوم تمديداً لحياة الانسان

على هذا الكوكب ، وفرصة جديدة له في البقاء والازدهار، يدين لهذه المنة كل من ولد بعد هذا اليوم ، وكل من عاش في العصر الذي يليه •

كان الجواب من غير نزاع ومن غير تردد ، هو اليوم الذي ولد فيه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم •

انه هو اليوم الذي وجدت فيه الانسانية الايمان الذي فقدته وأفلست فيه من مدة طويلة ، الايمان بفاطر هذا الكون ووحدانيته ، والايمان بمصيرها وبالبعث بعد الموت بعد ما يئست من مستقبلها وتهالكت على هذه الحياة وعبادة الشهوات، والايمان بسلسلة الرسل وهداة السبل، بعدما تسلط عليها الدجالون المحترفون ، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، والايمان بقيمة الانسان وكرامته بعدما أنكرتها وثارت عليها وامتهنتها أمام الأحجار والأشجار ، والحيوانات والانهار، والملوك والامراء والاغنياء والاقوياء ، فأصبحت تؤمن بأن الدنيا خلقت لها وأنها خلقت لله ، وأن لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي الا بالتقوى ، كل بني آدم من آدم وآدم من تراب ، وأصبحت تؤمن بالحقوق والواجبات ، فلكل حق وعليه واجب ، وليكن رفيقاً في

المطالبة بحقه مقتصداً في التمتع به ، قوياً نشيطا في أداء واجبه « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » والنساء شقائق الرجال ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ، الى آخر ذلك من التعاليم المتزنة والتوجيهات الحكيمة ، التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم ، وبفضلها وجد المجتمع الرشيد السعيد الفاضل الكامل الذي لا يوجد له نظير في التاريخ ، وعلى أساسها يقوم هذا المجتمع في كل عصر ومصر وفي كل زمان ومكان .

ولم يكن هذا اليوم ظهور لهذه المبادىء وتعريف بهذه التعاليم المتزنة والتوجيهات الحكيمة، فقد كان ذلك مراراً في فترات مختلفة من الزمان ـ وان لم تكن في هذا الطور الكامل ـ وكانت صيحات ترتفع حيناً بعد حين ثم تغيب في دياجير الظلام ويبتلعها المجتمع الفاسد ، لأنه ليس وراءها فرد يجازف لأجل ذلك بحياته وأسرته وكل ما يتمتع به من شرف ومركز ومنعة ، ولم يكن وراءها جماعة تراهن في سبيل ذلك بكل ما تملكه من حاضر أو تؤمل فيه من مستقبل ، ولكن البعثة المحمدية كانت مقرونة ببعثة أمة جديدة، أمة تعيش لهذه الدعوة المقدسة وتعيش على هذا الجهاد المقدس : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون

بالله [1] » أمة تهب نفسها لهذه الدعوة وتربط حياتها بحياتها .

ويتزعم هذه الأمة الجديدة الخالدة ـ التي نيطت بها هذه الدعوة ـ العرب الذين آمنوا بصاحب هذه الرسالة الجديدة بصدق واخلاص ، ووضعوا أيديهم في يده وحكموه في نفوسهم وأموالهم وأملاكهم ، وأخضعوا له رغباتهم وإراداتهم ، فكانوا أصحابه الأولين وجند الله المنصورين ، وحملة هذه الدعوة وأمناءها ورسلها وأصحاب النصيب الأوفر في فقهها ووعيها، والاستماتة في سبيلها وتحمل الخسائر والنكبات لأجلها ، حتى ارتبط مستقبل هذه الدعوة بمستقبلهم ، وبقاؤها ببقائهم حتى استطاع الرسول وساغ له أن يقول في ساحة بدر «اللهم ان تهلك هذه العصابة لن تعبد [1] » .

ومكن الله لهؤلاء العرب في الأرض ، وأعزهم بعد الذل وأغناهم بعد الفقر ، وقواهم بعد الضعف، ووحدهم بعد الفرقة ، وأسبغ على لغتهم المحصورة في جزيرتهم القدسية الدينية ، وكتب لها الانتشار في العالم ، وغرس حبها في القلوب حتى امّحت أمامها كثير من اللغات ، وكانت لغة

---

١ ـ الآية ١٠ من سورة آل عمران .

١ ـ راجع سيرة ابن هشام غزوة بدر .

الشرق الأوسط الوحيدة ، ونطق بها بنو آدم من ضفاف دجلة الى الجبل الأطلس ، وأصبحت لغة الدين والعلم والتأليف في العالم الاسلامي الجديد الفسيح ، ومنح العرب مركزاً سيبقى معهم على رغم الحركات الشعوبية في العالم الاسلامي ، والقوميات المتطرفة ما داموا متدينين بدين الاسلام ، مؤمنين بتعاليمه ، عاملين بفرائضه ، عارفين بمحمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فضله ومنته، مصدقين بأنه هو الذي نال به الانسان الكرامة ونال به العرب الشرف والزعامة .

هذا هو العالم الجديد الذي يعيش فيه الناس ويغتبطون به ويتمتعون فيه بالحرية والمساواة ، وكثير من الحقوق التي كانت مهضومة مهجورة في العالم القديم ، وتتقدم فيه المدنية الى الأمام ، وهذا هو العالم الذي يعيش فيه العرب متمتعين بمركز جديد ، وبحياة جديدة وبلاد لا صلة لهم بها الا عن طريق الاسلام وطريق محمد عليه السلام، ولا عهد لهم بها الا بعد البعثة المحمدية على صاحبها الصلاة والتحية .

ولا نشعر في غالب الأحيان أن مصدر هذا الانقلاب ومصدر هذه السعادة التي نتمتع بها جميعاً هو هذا الحادث السعيد الذي حدث في هذا اليوم ، ولادة محمد

صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم خاتم الرسل وامام الكل ومنير السبل .

ان ذلك اليوم ، هو اليوم الذي يحق أن تنشد فيه الانسانية في اعتزاز واهتزاز وبلاغة وايجاز :

ولد الهدى فالكائنات ضياء

وفم الزمان تبسم وثناء



في مهد الاسلام (*)

قالوا لي : حدثنا عن الحجاز وعهدك به قريب ، قلت نعم :

ان الحديث عن الحبيب حبيب

لا أتذكر ذلك اليوم الذي كان فيه ذكر مكة والمدينة جديداً على أذني ، وكان اليوم الأول الذي سمعت فيه عن مولد الرسول ومهد الاسلام، وعن مدينة الرسول ومهاجره عليه الصلاة والسلام ، وقد نشأت شأن أولاد المسلمين في بيئة لا ينقطع عنها ذكر الحجاز وبلديه المشرّفين ، وكان أهل البلاد دائماً يسقطون حرف العطف في كلامهم الهندي السريع فيقولون « مكة مدينة » فكنت أتخيل وأنا طفل صغير أنهما بلد واحد ، وقلما ذكروا مكة الا وذكروا المدينة وكذا بالعكس ، فلم أميز بينهما الا بعد ما كبرت سني وصرت أعقل، وعرفت أنهما بلدان مستقلان بينهما مسافة لا يستهان بها .

★ — حديث أذاعته محطة دلهي الهند في سلسلة أحاديث تحدث بها المؤلف عن مشاهداته وانطباعاته على اثر زيارته للشرق العربي ، عام ١٩٥١ م .

- لقد سمعت في صغري عن الجنة ونعيمها ، وسمعته بنفس الحنين وبنفس الاجلال عن الحجاز وبلديه، فنشأت على الحنين الى المجموع ، نشأت على الحنين الى الجنة والحجاز ، فلما تقدمت في السن عرفت أن الجنة لا سبيل اليها في هذه الحياة فصبرت وتجلدت وعزيت نفسي ، أما الحجاز فقالوا الوصول اليه ميسور ، وقرأت أن قوافل الحجاج غادية رائحة ، فلم أجد عنه عزاء ولم أجد لنفسي عذراً في عدم الوصول اليه ، ثم تقدمت في السن أيضاً وقرأت سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام وتاريخ الاسلام فتجدد الشوق القديم واشتعل الحنين في الضلوع ، وحقق الله أمنيتي وتشرفت بالحج والزيارة .

وقفت في هذا البلد الذي تحيط به جبال جرداء سوداء لا يكسوها عشب ولا خضرة ولا تجوس خلالها الأنهار ، متجرد عن كل ما يسترعي الاهتمام وعن كل ما يشرح الصدر ويسر النفس من فتنة المناظر ، وجمال الطبيعة، ورقة الهواء ، وعذوبة المياه . فقلت : ما أفقر هذا البلد في المظاهر، وما أكبر فضله على الانسانية والعالم المتمدن، فلولا هذا البلد الذي لا يتطاول بالمظاهر والمناظر لكان العالم قفصاً ذهبيا يبقى فيه الانسان طائراً سجينا ، فهذا هو البلد الذي أخرج الانسان من ضيق الدنيا الى سعتها ،

وأعاد الى الانسانية حريتها وكرامتها ، ووضع عنهـا اصرها والأغلال التي كانت عليها ٠

وما قلت لولا هذا البلد الا وخطر ببالي أن أزن عواصم العالم ومدنها الكبرى كلها في هذا الميزان العادل ، وأرى ماذا ينقص البشرية وماذا ينقص الحضارة لولا هـذه المدن وعرضتها أمامي بلداً بلداً ، فرأيت أن هذه المدن، انما كانت تعيش لنفسها ولحفنة من البشر ، وانها لم تضف الى ثروة الانسانية شيئاً كبيراً ، وقد جنت عـلى المدنية والانسانية في مختلف أدوارها ، فكم أفقرت في سبيلها البلاذ ، وكم شقيت أمم لسعادة أمة ، وشقيت أمة لسعادة أفراد ، فلا على الدنيا ولا على البشرية ولا على الحضارة اذا لم تكن هذه المدن في خريطـة الأرض ولم تزدهر فيها المدنية ولا العمران ٠

أما لولا مكة لتجردت الانسانية من أجمل ما عندها من معان وحقائق ، وعقائد وأخلاق ، وعلوم وفضائل ٠ هنا وجد العالم ايمانه الذي فقده منذ قرون ، ووجد العلم الصحيح الذي ضيعه في غياهب الجهل والظنون ، ووجد الكرامة التي أهدرها الطغاة والظالمون ، وبالاجمال هنا وجدت الانسانية من جديد ووضع التاريخ من جديد ٠

ولكن ما لي أقول لولا مكة ! أما كانت مكة بجبالها ورمالها بل ببيتها وزمزمهـا هذه القرون الطويلة التي تقدمت القرن السادس المسيحي لا تنكر من أمر هـذه الانسانية التائهة شيئاً ، ولا تمد اليها يد المساعدة ، محصورة بين جبالها ورمالها تعيش في عزلة عن العالم كأنها ليست من أسرة الانسانية الشقيقة ، ولا رقعة من هذه الأرض الفسيحة ؟ بل أحري بي أن أقول : لولا ابن مكة الذي تغير به مجرى التاريخ ، وانقلب به تيار الحياة واستأنف العالم سيراً جديداً الى نحو جديد ٠

وهنا تمثلت لي مناظر مختلفة ، اني لأرى سيد قريش يطوف بالبيت وحده وهو موضع سخرية واستهزاء ، وتمتد اليه يد بالاهانة والايذاء ، وهو مقبل على عمله خاشع متواضع ، ثم أراه بعد ما ينتهي من طوافه يحاول الدخول في البيت ، فيأبى عثمان بن طلحة سادن الكعبة ، وينال منه ، فيحلم ويقول : « يا عثمان ، لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت [1] » فيقول : لقد هلكت قريش يومئذ وذلّت ، فقال : « بل عمرت وعزت يومئذ » ثم كأني أراه يوم الفتح يطوف بالبيت وحوله جمع من أصحابه الذين يفدونه بالأنفس والأرواح

---

١ ــ سيرة ابن هشام ٠ فتح مكة ٠

ويطلب سادن الكعبة فيقول : « هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم بر ووفاء » (١) ·

لقد شهد التاريخ أنه لم يملك المفتاح الذي استطاع أن يفتح به الكعبة فحسب ، بل ملك المفتاح الذي فتح به أقفال البشرية المعقدة التي أعيت عقلاء العالم كلهم ، ذلك المفتاح هو القرآن الذي نزل عليه ، والرسالة التي أكرمه الله بها ، والذي لا يزال يقدم مساعدته لفض مشكلات جديدة وفتح أقفال جديدة ·

وتوجهت بعد الحج الى المدينة المنورة على جناح الشوق يحدوني حادي الحب والوفاء ، أتحمل متاعب السفر ، وأتمثل ذلك الراكب الأول الذي ملأ الفضاء نوراً وسكينة ، ووصلت الى المدينة المنورة ،وصليت ركعتين في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وحمدت الله على ذلك ، ثم وقفت وأنا مثقل بمنن لا أستطيع أن أكافئها ولاأستطيع أن أقضي حقها ، وصليت عليه صلى الله عليه وسلم وسلمت عليه صلى الله عليه وسلم ، وشهدت أنه صلى الله عليه وسلم قد بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة ونصح الأمة ،

---

١ ــ عن المصدر السابق ·

وجاهد في الله حق جهاده ، وعبد الله حتى أتاه اليقين ، وسلمت على صاحبيه الوفيين الأمينين ، اللذين لم يعرف التاريخ البشري صاحباً أوفى لصاحبه منهما ولا خليفة أقوى على حمل أعباء الخلافة منهما ، رضي الله عنهما وأرضاهما ، ثم توجهت الى البقيع ، تلك القطعة الصغيرة التي تحتضن أعظم ثروة في الصدق والصفاء والخلة والوفاء ، وهناك رجال آثروا الآخرة على الدنيا ، وآثروا الغربة والهجرة في سبيل الايمان والعقيدة على البقاء في الوطن في سبيل الشهوة والراحة ، وآثروا جوار الرسول على جوار الأحبة والأقارب ، فلم يبغوا عنه حولا ، ولم يطلبوا له بدلا : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » (١)

وتوجهت الى أحد ، تلك القطعة التي مثلت أروع رواية وأعظمها تأثيراً على تاريخ الانسانية ، رواية الايمان واليقين ، رواية البطولة والوفاء ، رواية الحب الطاهر والولاء النادر ، وكأني أسمع من أنس بن النضر « اني لأجد ريح الجنة من دون أحد » (٢) ويقول سعد بن معاذ : «ماذا نصنع بالحرب بعد محمد صلى الله عليه وسلم»

---

١ ــ الآية ٢٣ من سورة الأحزاب ٠

٢ ــ سيرة ابن هشام ٠

وقد طار في الناس أنه قتل ، فيقول أنس : « ماذا نصنع بالحياة بعد محمد صلى الله عليه وسلم » وهنا في أحد ترّس أبو دجانة على رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهره والنبل يقع فيه ، وهنا ترس طلحة بيده حتى شلت ، وهنا قتل حمزة ومثّل به، وقتل مصعب بن عمير أنعم فتيان قريش عيشاً ، ولم يجدوا ما يكفنونه به الا الكساء الذي لا يغطي كل جسده ، يا ليت أحداً أعار العالم شيئا من هذا الحب والولاء ، وأهدى للعالم شيئاً من الايمان واليقين، فتبدلت الأرض غير الأرض والعالم غير العالم .

قالوا لي : حدثتنا عن القاهرة والحياة فيها ، وعن دمشق ورجالها ، فحدثنا عن الحجاز ، قلت : ان الحديث عن الحجاز له لون خاص ، انه يدور حول رجله العظيم ، ويتصل برسالته وتاريخه فانه حديث عن مهد الاسلام وبلد الرسول عليه الصلاة والسلام .

* *

البعثة المحمدية (*)

سرّح طرفك في عالم القرن السادس المسيحي ، ولا يفتننّك الأبنية الشامخة المشيدة ، والملابس الفاخرة المزخرفة ، وقناطير الذهب والفضة المقنطرة ، فذلك ما تراه في مجموع الصور القديمة ودار الآثار العتيقة . ولكن انظر هل ترى للمروءة حياة في ناحية من نواحي الشرق والغرب ، احبس نفسك واستمع ، هل تحس لها عرقاً ينبض وقلبا يخفق .

ترى الحياة بحراً يزدرد فيه الحوت الكبير الحوت الصغير ، والعالم غابة يفترس فيها الأسود والكلاب والخنازير والذئاب الغنم والخروف ، لقد انتصر الشر على الخير والرذيلة على الفضيلة والأهواء على العقل والبطن على الروح ، لقد تطاولت الأرض السماء سفاهة، ونصبت للفرقدين الحبائل .

أصبحت الدنيا سوق المناداة، بضائعها كل ملك ووزير وغني وفقير ، يباعون بيع السلع فهل ترى في هذا الغمار

★ — من رسالة (معقل الانسانية) للمؤلف .

فتى يربأ بنفسه عن أن يباع بيع السلعة وينادي : ان هذا الجو الفسيح لا يسع لطيراني ، لقد كانت الحياة لا تقع مني بمكان ، فخلق الله لي حياة ثانية ، فكيف أبيع روحي وجوهر انسانيتي بكسر من كسور هذا العالم الصغير ؟

لقد صارت الشعوب والبلاد ، ثم القبائل والعشائر ، ثم الأسر والبيوتات دوائر صغيرة ، واعتاد أصحاب الطموح والكبرياء أن يسكنوا فيها كالأقزام، لا يضيقون بها ذرعاً ، ولا يبغون عنها بدلا ، ولا يرون في خارجها حياة ، ولا يعرفون بشرية أوسع وعالما أفسح ، لقد أصبحت الحياة تعاطياً في البيع والشراء وتسابقا في المكيدة والخداع ، أصبحت البشرية جثة هامدة ليس فيها حرارة روح ولوعة قلب وسمو نفس ٠

لقد نبتت على أديم البشرية غابة كثيفة ، وحشائش شيطانية ، فيها آجام يعيش فيها السباع الضارية ، والحشرات السامة ، وفيها مستنقعات فيها أنواع العلق، وفي الغابة كل سبع مخيف ، وكل طائر جارح ، وفي المستنقعات كل علق خبيث يعلق بالانسان ويمتص دمه ، ولكن لم يكن في هذا العالم المزدحم بالبشر من يستحق أن يسمَّى بشراً ، أما الرجال فقد لجأوا الى المغارات والأديار

والكنائس واحتفظوا بدينهم وحياتهم ، أو مكثوا في تيار الحياة يتلهون بالفلسفةويتغنون بالشعر، وليس في المدينة رجل جد يكافح أعداء المدينة وينتصر للبشرية المظلومة.

واذا بهذه الجثة البشرية الهامدة يدب فيها دبيب الحياة ، واذا بهذا الجسد الميت يهتز اهتزازاً تتزلزل به أوكار الطيور التي قد عششت عليها وباضت وفرّخت وهي تحسب أنها ميتة لا حراك بها ، واذا ببيوت العناكب تتفتت وتتساقط ، وذلك ما يعبر عنه أصحاب السير والروايات في لغتهم المحدودة بارتجاج ايوان كسرى ، وخمود نار المجوس ، أما رأيت كيف تتناثر المباني المجصَّصة والبروج المشيدة كأوراق الخريف بحركة من باطن الأرض فيضطرب بها ظهر الأرض ، فكيف لاتتزلزل نظم كسرى وقيصر وما بناه فراعنة العصر ببعثة النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم وطلوع فجر السعادة والعدل في العالم ؟.

بعث محمد بن عبد الله الهاشمي صلى الله عليه وسلم في مكة قلب العالم المتمدن المعمور ، فأرسل صيحة دَوَت بها الغابات وجاوبتها الجبال ، وذلك قوله : « لا اله الا الله محمد رسول الله » كلام وجيز يحمل في أثنائه عالم المعاني والحقائق ، ولقد شهد التاريخ بأن أسس الحياة

الكاذبة المزورة ودعائم النظم المصنوعة الجائرة لم تتأثر ولم تتزلزل بشيء مثل ما زلزلت في هذه المرة بهذه الكلمة الوجيزة البسيطة ، وأن الذهن البشري لم يضرب أبداً قبل هذه ضربة موجعة ، فتألم بها هـذا الذهن البليد واستشاط غضباً وجن جنونه وقال : « أجعل الآلهة الها واحداً ان هذا لشيء عجاب » (١) واعتقد قادة هذه الحياة أنه أمر مبيت وخطة مدبرة ضد هذه الحياة السائدة ، وأنه لا بد من مكافحتها : « وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشيء يراد (٢) » لقد كانت ضربة قاضية على أفكار الحياة الخاطئة بأسرها يتأثر بها هيكل الحضارة والسياسة بجميع أركانه .

لقد كانت ـ ولا تزال ـ هذه الكلمة تعني أن هـذه الحياة ليست أجمة برية وحشية لم يعتن بها معتن ، بل هي حديقة منسقة غرسـها الله تعـالى وتعهد تهذيبهـا واصلاحها ، وأن الانسان ريحانة هذه الحديقة ، وروح الربيع ، وكيف تذبل هذه الريحانة وتدوسها الأقدام ، أو تخطفها الطير ، أو تهوي بها الريح ، ولم تؤد مهمتها، ولم تحل المحل اللائق بها ، فتقتضي فطرته أن يعبد الله

---

١ ـ الآية ٥ من سورة ص .

٢ ـ الآية ٦ من سورة ص .

وحده ، وتطالبه نفسه السامية أن لا يقتنع بغير رضا الله ، ويقتضي شرفه وكرامته أن يجاهد في هذا السبيل ويبذل ما عنده من عقل ومواهب ، أو مال ومكاسب ، وليس للانسان أن يتطامن لجسد أو روح، أو جبل ونهر، أو شجر وحجر ، أو ثروة مثر أو جاه وجيه ، أو سلطان ملك ، انه ليسمو على كل مخلوق ويتضاءل أمام خالقه ، ان العالم لم يخلق الا ليخدمه ويطيعه ، ان الله سبحانه وتعالى قد أسجد له الملائكةالذين هم حملة القوىالكونية، ليعلم الانسان أن هذا الكون خاضع له متواضع ، فيأمره وينهاه ، ويستخدمه لمصالحه الطيبة ، ويسخره لمآربه العادلة (وذلك قوله لا اله الا الله) .

ثم ان حياة الانسان هي السهم الوحيد الذي يملكه ، فاذا أصاب غرضه فياله من سهم مصيب ، واذا طاش وأخطأ رميته فيارزيئة رام ضيع سهمه الوحيد ! وان حياته لوسيلة كل سعادة في الدنيا والآخرة ، وانها رأس بضاعته فأخلق به أن يكون ضنيناً بهذه الحياة شديد الاحتفاظ بها ، وأن لا يضيعها في تجربة واختبار ، وفي مخاطرة وقمار، وأن لايخبط فيها خبط عشواء ولايركب متن العمياء ، فانما هي حياته الوحيدة ، وما أقبح القمار في رأس المال وما أشده خطراً ! فينبغي أن يسير مركب الحياة بدلالة خِرِّيت حاذق مجرب ، فان المفازة موحشة

وقطاع الطريق كثير • وأن يسير في ضوء النبوة والوحي، فان عالم القياس والتخمين ظلام في ظلام « ظلمات بعضها فوق بعض » • وأن النبوة هي النور الوحيد في هـذه الظلمات المتراكمة ، والمنبع الوحيد لعلم الله المحكم وأمره المبرم ، والنبي هو المتصل بهذا المنبع ، والواسطة بين الحق والخلق في الهداية « ما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى » وأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو آخر المتصلين بهذا المنبع ، وخاتم الأنبياء والمرسلين الذي نسخ الله به الأديان ونصبه اماما لكل زمان ومكان، وهو أجمعهم لصفات النبوة والكمالات البشريـة ، ومعـاني الحسن والاحسان ، وهو المثل الكامل للبشر في كل عصر ومصر، وأن دينه الذي جاء به هو رسالة كل عصر ودواء كل داء، فلا يتم الايمان بالله ولا يمكن الوصول اليه الا بالايمان بالرسل عامة وبمحمد صلى الله عليه وسلم خاصة ، وذلك قوله « محمد رسول الله » •

وان الانسان ليحمل في رأسه طموحا لا يشبع ، وهمة في قلبه لا تقف ، وروحاً في جسمه لا تني ، وقلبا في جنبه لا يطمئن ، فلا يروي غلته ولا يشبع جوعته هذا العالم الضيق ، المتثاقل ، وان طاعته وعصيانه لأوسع من أن

---

١ ـ الآية ٣ من سورة النجم •

يستوفي ثوابها أو عقابها في هذا العالم المحدود ، فتلزم له حياة خالدة ، وعالم لا يعرف الثغور والأطراف، ليست هذه الحياة الا قطرة من يم اذا قورنت بالحياة الآخرة ، وليس هذا العالم الا شبحاً اذا قوبل بالعالم الآتي ، ذلك هو الايمان بالبعث والحياة الآخرة الذي هو تمام الايمان، وثالث الأركان في الأديان ٠

لقد بلغ الذهن الانساني في القرن السادس الميلادي من الشلل الفكري وبلادة الحس غاية عجز معها عن أن يتخطى الماديات والمحسوسات وما يتصل بالجسم والبطن ، وأن يعتقد لانسان اختصاصاً بالنبوة والوحي ٠ لقد كانت لهم مقاييس ورثوها عن آبائهم ، فاذا رأوا بِدعاً من البشر أو مثالا جديداً للانسانية قاسوه بمقاييسهم ، لقد كان بينهم رجال يرون أنهم المنتهى في العظمة الانسانية ، فاذا نبغ فيهم عبقري ، أو ظهر فيهم رسول قاسوه بهم ، لقد أفرغوا جهدهم ، ونثروا كنانة فكرهم ، فلم يروا الا أن محمداً صلى الله عليه وسلم اما طالب ثراء ورخاء ، أو رائد سيادة وملك ، أو منتجع ترف ولهو ، واذا أنصفنا ذلك الجيل رأينا أنه لم يبعد النجعة ، فانه لم يجرّب طموحا فوق طموح الملوك ، وتطاولا أكثر من تطاول الأمراء والوزراء ، فأرسلوا اليه عتبة بن ربيعة ، فكلم محمداً صلى الله عليه وسلم ، وكان ما قاله تمثيلا صحيحاً

لذهن ذلك العصر ، وتعبيراً صادقا عن عواطفه ونفسيته قال : « يا ابن أخي ، ان كنت انما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا . وان كنت انما تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك . وان كنت انما تريد ملكاً ملكناك علينا (١) » .

وما أجاب به رسول الله صلى الله عليه وسلم كان تمثيلا صحيحاً للنبوة ، وعرضا صادقا لموقف الأمةالوليد، فأثبت أنه لا يطمح الى ثراء ورخاء ، أو شرف وترف . ان نفسه عالية تسمو عن هذه الخسائس سمو السماء على الأرض، إنه لا تهمه راحته الذاتية ورقيه الشخصي ، انما يقلقه مستقبل البشر ، انه لا يصنع لنفسه جنة شدّاد، بل يريد أن يعيد الانسان المنفي الى الجنة الخالدة التي أعدت له ، انه لا يسعى ليسود قبيلة أو أمة ، بل يريد أن يخرج الانسان من حكم الانسان ، كائناً من كان ، ويدخله في حكم سيده الذي هو رب السماوات والأرض .

على هذا الأساس نهضت هذه الأمة ، وبهذه الرسالة انتشرت في العالم ، وان ما أجاب به رسل المسلمين في مجالس رستم ، ويزدجرد ، يمثل تمثيلا صادقاً لروحها ونزعتها ، قال ربعي بن عامر : « ان الله ابتعثنا لنخرج

---

١ ـ البداية والنهاية لابن كثير .

من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا الى سعة الدنيا ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام» ولمّا أمكنهم أن يؤسسوا دولة على منهاج دينهم وأساس عقيدتهم نفّذوا فعلا ما كانوا يدعون اليه غيرهم ، فخرج الانسان من حكم الانسان الى حكم الله وعدله ، ولم يكن الحكم لحزب أو عشيرة ، بل كان الأمر والنهي لله . يقول الخليفة الأول : «أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فان عصيته فلا طاعة لي عليكم » وقال عمر لعمرو بن العاص ـ وقد ضرب ابنه رجلا من أهل مصر ـ : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » . وكان نائبهم على مملكة كبيرة كفارس يعيش في عاصمتها القديمة كأدنى فرد من أفراد الأمة حتى يتوهم الغريب أنه فقير أو أجير ، فيضع الحمل على رأسه فيحمله الى بيته ، وكان أكبر غني منهم يعيش في الدنيا كأنه غريب أو عابر سبيل ، فيستهين بملذات هذه الحياة الفانية ، ويدخر طيباته للحياة الخالدة .

كان وجود هذه الأمة في كل ناحية من نواحي العالم رمزاً لحقيقة غير الحقائق المادية واللذات الجسدية، وكان كل فرد من أفراد هذه الأمة يعلن للعالم وليداً وميتاً ، أن وراء القوى المادية قوة سماوية ، ووراء الحياة الفانية حياة خالدة ، فاذا ولد وليد صرخ في أذنه بهذه الحقيقة ،

واذا مات فارق الدنيا بهذه الشهادة ، اذا ساد على هذا العالم جمود أشبه بالموت ، وغاص الناس في بحر الحياة الى آذانهم ، واختفت كل حقيقة وراء الحقائق المادية ، اذا بصوت يدوي حي على الصلاة حي على الفلاح، فينكسر طلسم العالم المادي ، وتتجلى الحقيقة الروحية ، ويجري الناس وراء هذا الصوت وقد نفضوا أيديهم من أشغالهم وخروا أمام ربهم ، واذا ضرب الليل رواقه ، ومدّ النوم أطنابه على هذا العـالم الحي الصـاخب فاذا هو مقبرة واسعة ليس بها داع ولا مجيب، واذا بمعين الحياة ينصب في وادي الموت ، وينبلج الصبح الصادق في الليل الغاسق، وتتلقى الانسانية الناعسة من مؤذن الفجر درساً في الحياة والنشاط والكدح والكفاح ، والشكر والعبادة ، واذا اغتر أحد بقوته وسلطانه ، وزها بكثرة ملئه وأعوانه ، وقال بلسان المقال أو بلسان الحال : « أنا ربكم الأعلى » أو « مالكم من اله غيري » قام رجل متواضع على منصة عالية في كل بقعة من بقاع مملكته أو نفوذه ونادى « الله أكبر الله أكبر » فينادي بحكم الله في مملكته ، ويرغم أنف الاله الكاذب في سلطانه .

صلة مسلمي العجم بالنبي العربي (★)

صلى الله عليه وسلم

(اطلعت على كلمة الأستاذ عتيق الرحمن السنبهلي منشىء مجلة « الفرقان » الشهرية التي تصدر في لكهنؤ الهند ، في التعليق على مقال الأستاذ أحمد حسن الزيات في مجلة « الأزهر » الذي أثار استنكار جميع أصحاب الضمائر والايمان في العالم الاسلامي وسخطهم ، والكلمة دافقة بالحياة والقوة ، وهي تعرب عن وجهة نظر مسلمي الهند والبلاد العجمية ومدى ارتباطهم بالمقام النبوي الشريف، ورأيت من حق هذه الكلمة المؤمنة أن أتولى نقلها وتعريبها ليطلع عليها اخواننا العرب) .

يؤثر عن شاعر ايراني كبير(١) اشتهر بنبوياته الخالدة

★ ـ هو الشاعر الايراني الكبير الملقب في الشعر على عادة شعراء الفرس القدسي ، توفي سنة ١٠٥٦ ، عاش في الهند في عصر شاهجهان الامبراطور المغولي .

بيت سار به الركبان في عصره وبعد عصره، يقول مخاطباً للرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم :

« اعتزيت مرة الى كلبك ، وتصببت عرقاً ، وأطرقت حياءً ، لأن الاعتزاء الى كلب من كلاب الحي في مدينتك اساءة أدب وغرور بالنفس [1] » .

ويقول شاعر آخر من شعراء العجم :

« ان محمداً العربي هو الذي يتشرف به كل أحد في الدنيا والآخرة ، فمن أبى أن يكون تراب عتبته تربت يداه ورغم أنفه » .

الى هنا وصل الشعراء والأدباء في العجم من الحساسية ورقة الشعور، والتواضع والتأدب لمقام الرسالة العظمى، وقد نشأوا في بيئة عجمية بعيدة عن مهد الاسلام ومهبط الوحي ، وعيّروا بالعجمة والرطانة .

---

١ ــ ليس على المؤلف عهدة فيما بلغ اليه الشـــاعر في تصوير عاطفته ، فانه ناقل ومترجم ، ولا شك أن الانسان ــ وخاصة المسلم ــ أشرف من الكلب في انسانيته وايمانه ، وقد قال الله تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر » (الآية) .

قارن ذلك بما صدر حديثا عن قلم كاتب عربي كبير ، في بلد اسلامي كبير، كان يعتبر كنانة الاسلام وقبلة الاسلام، في مجلة تصدرها كبرى الجامعات الاسلامية وأقدمها وأشهرها في العالم الاسلامي ، الأزهر الشريف :

« ان الوحدة المحمدية كانت كلية عامة ، لأنها قامت على العقيدة ولكن العقيدة مهما تدم قد تضعف أو تحول ، وان الوحدة الصلاحية كانت جزئية خاصة ، لأنها قامت على السلطان ، والسلطان يعتريه الوهن فيزول ٠

أما الوحدة الناصرية فباقية نامية ، لأنها تقوم على الاشتراكية في الرزق، والحرية في الرأي، والديموقراطية في الحكم، وهذه المقومات الثلاثة ضمان دائم للوحدة[1] »٠

هل يبلغ رجل يلفظ بكلمة الاسلام ، ويؤمن برسالة محمد عليه السلام في نزوة من نزوات الشباب ، وفي عثرة من عثرات اللسان الى هذا الحد من الوقاحة وقلة الحياء، والاعتداء على مقام الأنبياء ؟ لقد عرف عن الماجنين المستهترين السكارى في بلادنا ، أنهم في سكرهم وثورتهم لا ينسون التأدب مع مقام الرسالة ، فاذا تناوله أحد

---

١ ـ من مقال للأستاذ أحمد حسن الزيات في مجلة الأزهر في عدد محرم سنة ١٣٨٣ هـ تحت عنوان « أمة التوحيد تتوحد » ٠

الأشقياء باساءة أو اهانة، قامت قيامتهم وثارت ثائرتهم. والى القارىء الكريم قصة رواها صحافي معروف عن شاعر كبير في شبه القارة الهندية ، كان في طليعة شعراء الهوى والشباب ، ومن المدمنين للخمر والشراب ، وهو الشاعر « أختر الشيراني » الذي توفي قبل سنوات . يقول الأستاذ شورش الكشميري في صحيفته السيارة Chatan «جتان» الصادرة في لاهور الباكستان .

« اجتمع فريق من الشباب والشعراء في فندق (العرب) في لاهور مرة ، وكان في الجماعة شباب شيوعيون في غاية من الذكاء وسلاطة اللسان ، وتجاذبوا مع الأستاذ (أختر الشيراني) أطراف الحديث ، وصاروا يتناقشون معه في موضوعات شتى ، وكان الأستاذ الشيراني قد شرب كأسين من الخمر ، وقد فقد رشده وملكته نشوة الخمر ، وأخذته رعشة في الجسم ، وكان يتكلم كلاماً متقطعا غير متزن ، وكان معروفا بالاعجاب الشديد بنفسه والتيه بها ، وكان لا يعترف بغيره من الشعراء ، ولست أذكر اليوم جيداً الموضوع الذي كان يدور البحث فيه ، ولكن أذكر أنه قال : قد ظهر في المسلمين ثلاثة نوابغ عبقريين ، أولهم

أبو الفضل (١) والثاني أسد الله خان غالب (٢) والثالث أبو الكلام آزاد (٣) ، أما الشعراء المعاصرون فكان لا يعترف لأحد منهم بالمساواة أو المجاراة ، وقد سأله الشباب الشيوعيون عن الشاعر الكبير (فيض أحمد فيض) فأعرض عن الجواب ، وسألوه عن (شبير حسن جوش) الشاعر المعروف ، فقال : ليس بشاعر انما هو ناظم ، وهكذا كان موقفه من جميع الشعراء المعاصرين ، استخفاف أو اعراض أو تبسم أو تنكيت ، ولما رأى الشباب أنه لا يعترف بقيمة حركة الأدب التقدمي لجأوا الى موضوع آخر ، لعله يثيره أو يحرك منه ساكناً ، فقالوا : يا سيدي ، ماذا تقول عن النبي الفلاني ؟ وكانت عيناه محمرتين ، وأخذت الخمر فيه كل مأخذ ، وكان لا يملك لسانه ولكنه أفاق ، وقال : ما هذا الهراء ؟ لا تتحدثوا الا عن الأدب والانشاء والشعر والشعراء ، فعطف عنان الكلام الى أفلاطون ، وقال : ما رأيك عن

---

١ ـ من وزراء الامبراطور « أكبر » وصاحب « أكبرنامه » المأثرة العلمية التي تعتبر من الكتب الخالدة في التاريخ والدستور وتخطيط البلاد .

٢ ـ شاعر أردو ، يعتبر من أئمة الشعر الأردوي وصاحب مدرسة خاصة كان في القرن الثالث عشر الهجري .

٣ ـ العالم الأديب المعروف ، رئيس المؤتمر الهندي الوطني الأسبق ووزير المعارف في الجمهورية الهندية سابقاً .

مكالماته ؟ وسألوه عن أرسطو وسقراط ، وكان نشيطاً للكلام فقال : أمة قد خلت ، حدثونا عن شخصياتنا وحاضرنا ، ان أولئك الفلاسفة لو كانوا في عصرنا لتلمذوا علينا ـمالنا ولأولئك حتى ندلي برأينا فيهم ؟

وانتهز شاب « شاطر » من هؤلاء الشباب الشيوعيين فرصة نشاطه ومرحه فقال : وما رأيك عن سيدنا محمد؟ وكأنما نزلت صاعقة وهبت عاصفة ، فلم يكد الشاب يتم جملته حتى تناول الشاعر السكران كأس الزجاج وضربها على رأسه قائلا : يا قليل الأدب ! أنت توجه هذا السؤال **الوقح الى رجل مذنب معترف بشقائه ، ماذا تريد أن تسمع من فاسق ؟ وكان جسمه يرتعد ، وانفجر باكياً وأجهش بالبكاء وأقبل على الشاب الوقح يقول له في عنف وغضب : كيف سوّلت لك نفسك يا خبيث أن تذكر هذا الاسم النزيه المقدّس ، كيف تجاسرت على ذلك يا قليل الأدب ، يا قليل الحياء ، لقد كان لكلامك مجال واسع ، فلماذا دخلت في هذا الحمى المقدس ، تب الى الله من هذا السؤال الوقح ، انني أعرف خبث باطنكم جيداً ، وعرف الشر في وجهه وكأنه يريد أن يفتك بالشاب ويسطو به .**

أما الشاب فقد سقط في يديه ، وغاب رشده ، ولم يكن يقدّر أنه سيلقى هذه النتيجة الوخيمة ، وأنه يوقظ

في الشاعر هذا الليث الثائر ، ويثير فيه هـذه الشرارة الكامنة ، شرارة الايمـان والحنـان ، وشرارة الحمية والغَيرة ، فكان لا يعرفه الا شـاعر الهوى والشباب ، وشاعر الغزل والغرام، وحاول أن يشغله عن هذا الحديث المثير ، وأن يهدىء فيه هذه الثائرة ، ولكنه لم ينجح ولم تهدأ ثائرة (أختر) فأمر باخراجه من المجلس ، ثم قام بنفسه وبات طول الليل باكيـاً يقول : **لقد بلغ هؤلاء الشباب الملحدون هذا الحد من الوقاحة والجراءة ، انهم يريدون أن ينتزعوا منا آخر ما نعتز به ونعيش عليه من حب وولاء ، واخلاص ووفاء ، انني رجل مذنب ، لا شك أعترف بذنبي ، ولكن هؤلاء يحاولون أن نخلع ربقـة الاسلام ، ونخرج من حظيرة الايمان ، لا والله لا نرضى بذلك .**

ولكن ــ واأسفاه وواويلاه ــ ما أبعد المسافة بين هذا الوفاء العجمي وبين هذه الحمية الهندية ، وبين هـذه الغَيرة الايمانية الثائرة المضطرمة التي يمثلها شاعر لم يكن قط من أبناء العرب ، ولم يتكلم مرة بلغة العرب ، لقد نشأ بعيداً عن كل ذلك ، بعيداً عن البيئة الدينيـة والعلمية والأزهر الشريف ، عاش في مجالس الشـرب ونوادي اللهو ، وأوسـاط الشـعر والأدب ، وعـرف

بالاستهتار وخلع العذار ، والشعر الخليع كشعر عمر بن أبي ربيعة وأبي نواس ، وبشار بن برد . ما أبعد المسافة بينه وبين أديب كبير ، رضع بلبان اللغة العربية وآدابها الاسلامية، واشتهر بمقالاته في السيرة النبوية والموضوعات الاسلامية ، يرأس تحرير مجلة هي لسان حال الأزهر الشريف ، مثابة العلم والعلماء ومعقل الدين الحنيف . كيف يقرن الاسم الذي هو من أكرم الأسماء وأعزها عند المسلمين ، باسم حاكم مصر الحالي ، ويقارن بينهما ، ثم تبلغ به الوقاحة الى أن يعلن رجحان ناصر في هذا الميزان، وأن الوحدة التي يتزعمها وحدة باقية نامية ، أما الوحدة التي دعا اليها محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فمعرضة للضعف والتحول ، يا ليته لم تلده أمه ، ويا ليتنا لم نعش لنسمع ذلك .

ثم يا ليتنا سمعنا أن جمال عبد الناصر اضطرب لهذا المقال المخذول اضطراباً شديداً ، وطار نومه وتكدر عيشه ، وأن قصر الحكومة قد تزلزل ، وصعق المسلمون في مصر ، وأجهش الناس بالبكاء ، وقامت مصر كلها قومة رجل واحد، وثار ضمير الشعب المصري المؤمن الذي عرفه بغَيرته وحماسته للاسلام وحبه العميق المتفاني لمحمد عليه السلام ، فكانت ثورة عارمة تكون نكالا لكل من يقع في حمى النبوة ، ولكن ــ يا خيبة الأمل ــ لم يقع شيء من

ذلك ، وقد رأينا مجلة مصرية تصدر من القاهرة تعلق على هذا الحادث بعد شهرين من صدور مقال الزيات وتقول :

« والزيات وأمثاله بهذا النفاق المتبجح الأحمق يؤذون الثورة ، ويمكنون منها خصومها والمتربصين بها » .

ولقد كان لعلماء الأزهر على أثر نشر هذا الهراء اجتماعات وتجمعات وقرارات وبرقيات ، وكان لبعضهم مواقف ايجابية تذكر وتشكر مما جعل شيخ الأزهر يصدر بياناً ويصدر الزيات بيانا .

ولم نطلع على البيانين ولكن منشىء المجلة يعلق عليهما بقوله : « لم يغنيا عنهما من الله شيئاً » .

ويتناول صاحب المجلة مقال الزيات بالتحليل والتجزئة ويقول : « ان الزيات ذكر الوحدة الاسلامية باسم الوحدة المحمدية شأن المستشرقين من جهة ، ويقارن بين أسماء محمد وصلاح وناصر من جهة أخرى ، وهذا سوء أدب مع الله لا يغتفر » .

ثم يتناول هذا المقال بالنقد ويقول :

« نسي الزيات أن السيد الرئيس أشرف من أن يدّعي

النبوة أو يتورك عليها ، أو أن يرضى بتفضيله على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه أسمى من أن يقول انه جاء بما لم يجيء به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم » .

وهنا يملكنا العجب والأسف ، كيف تحرص هذه المجلة الاسلامية على التأدب مع ناصر في هذه المناسبة التي لاتدع رجلا يفكر في هذه الألقاب التي يكرم بها السيد المنشىء رئيس جمهورية ، فلا ينسى أن يذكره « بالسيد الرئيس» مع أن جميع الرئاسات الزائفة العارضة تتبخر أمام سيادة سيد البشر وسيد العرب والعجم، الذي يسعى اليه سلاطين العالم وسادة الأمم على رؤوسهم ، وقد تركوا وراءهم جميع شارات الشرف ومظاهر العظمة والفخار، ويتقدمون الى المقام النبوي الكريم مقنّعي رؤوسهم ، لا يرتد اليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ، كيف استطاع (هذا الكاتب المسلم) وهو يدافع عن هذه الحرية المقدسة أن يذكر الرجل الذي قورن به مع سيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم « بالسيد الرئيس » ويهيل عليه هذه التحيات وهذه الألقاب ويسبح بحمده ، لقد كان المقام يقتضي أن ينسى الكاتب كل شيء غير ما يستحقه هذا المقام الكريم مقام النبوة الخالدة ، ومقام السيادة العالمية من الاجلال والتكريم والغضب لحرمته ، وينسى ما يذكره العبيد المتزلفون والصحافة الخانعة الذليلة من الألقاب الرسمية

الفارغة الممجوجة ، انها قلة ذوق نعاتب عليها الكاتب الفاضل والعالم الديني الذي يرأس تحرير هذه المجلة ، انه دفاع ضعيف نربأ بمقام النبوة عن مثله ، ونترقب من مصر الاسلامية موقفاً أقوى وأشرف منه · لقد كنا ننتظر لهذا الدفاع لغة أقوى حماسة وأروع غيرة ، لقد كنا ننتظر أن يقول قائل في مصر : يكفي لشرف ناصر أن يقر بسيادة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وكفاه فخراً أن يجد مكاناً في آخر صف من صفوف موالي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وعبيده الأرقاء ، ويكفي لسعادة ناصر أن يكون له حظ من سعادات صلاح الدين الايوبي ·

يا حسرتا ! ان مصر التي لا يقل عدد المسلمين فيها عن ٩٠ في المائة ، ودينها الرسمي لا يزال الاسلام ، ولم تكن وطنيتها وحكومتها الا منحة من منح رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم الكثيرة ، استطاع فيها منافق أن يرجح كفة حاكم مصر على كفة سيد البشر ، وهو في وسط علماء الأزهر الشريف ، يتمتع بثقتهم ويأكل من رفدهم، ولا يستطيع رجل في طول هذه البلاد وعرضها ، أن يرفع صوته بقوله : أين الثرى من الثريا ، وأين الضريح من الضراح، وأين فقاقيع الماء من نبوة خالدة لا تغرب شمسها ولا يأفل نجمها ! أو ليس في مصر من يغضب لهذا الشرف ويقوم ثائراً ، فيقول لهذا الوقح الذي يقارن بين رئاسة

لا يعرف مصيرها انسان ، وبين هذه الرئاسة التي انتظمت الشرق والغرب وانتظمت الماضي والحال والمستقبل ، ويقارن بين الوحدة التي وحدت العرب والعجم ، ووحدت بين الأمم والشعوب المتحاربة من قرون فكانت أقوى أخوة من الاخوة الأشقاء : « واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعدءاً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا » (١) وبين الوحدة التي لم تستطع أن توحد بين بلدين عربيين قريبين ، وبين شعبين عربيين شقيقين ، ويريد أن يصف تلك الوحدة النبوية الخالدة العصماء بالوهن والزوال ، ويريد أن يوهن العروة الوثقى التي لا انفصام لها، لتحل محلها وحدة مصطنعة ولدت ناقصة مخدجة ، وعاشت سقيمة مسلولة ، تعاني الاحتضار ، وتخاف الانهيار في كل ساعة من ساعات الليل والنهار .

كناطحٍ صخرة يوما ليوهنها
فلم يَضِرها وأوهى قرنَه الوعلُ

* *

١ ــ الآية ١٠٣ من سورة آل عمران .

شعراء العجم في مدح سيد العرب والعجم ﷺ

(١)

جزى الله صديقي زيداً انه يتفنن في « ضيافة » الأذواق ، ويتلطف في اثارة العواطف الخامدة، والقرائح الجامدة ، فيؤلف نوادي أدبية يتساجل فيها الشعراء والأدباء وينشدون من أبياتهم ، أو يتمثلون بأحسن ما قاله الشعراء قديماً من الشعر الوجداني، فترق النفوس، وتلين القلوب ، وتفيض العيون ، وينقشع السحاب المادي الكثيف ، وينتقل الناس من عالم تسيطر عليه الآلام والهموم وتكاليف الحياة وأعباؤها ، فكل شيء فيه ثقيل يرسف في القيود ، ويتعثر في السلاسل ، كأنما يصعد الى السماء ، الى عالم تسيطر عليه العواطف والأشواق، وتهب فيه النفحات القدسية فيشعرون بخفة الروح ، وسرور القلب ، ورقة الشعور ، وصفاء النفس ، ويشعرون بلذة الحياة وخفتها ، فيصبح ما كان جحيما نعيما ، وما كان ثقيلا خفيفاً .

وقد خصص ندوة أمس بما قاله شعراء العجم في مدح النبي صلى الله عليه وسلم والحنين الى مدينته ، وما تغنوا به ، وفاضت به قريحتهم، وشاء شوقهم ،وحبهموايمانهم، وقد تحقق عند المطلعين على الأدب الاسلامي العالمي ، والذين درسوا آداب اللغات التي تكلمت بها الشعوب الاسلامية في بلادها ، وتذوقوا شعرها ، أن اللغةالفارسية هي أغنى ثروة، وأسعد حظاً في المدائح النبوية من غيرها، وتليها « أردو » التي هي سليلة الفارسية ، وأن ما قيل في ايران والهند في هذا الموضوع ، يمتاز عن غيره قوة وتأثيراً ، ورقة وعذوبة ، قد تجلت فيه العاطفة أقوى وأروع منها في غيره ، وقد ابتكر هؤلاء الشعراء معاني وأخيلة ، وجاؤا بتعبيرات لم يسبقوا اليها ، و لايزال السر في ذلك موضوع تفكير الباحثين ، وعلماء الأدب ·

وقد علل ذلك بعضهم بالمزاج الايراني والهندي، وأن طبيعة الفرس والهنود طبيعة الحب والغرام ، وأن لغتهم لغة الغزل والهيام ، فلما انصرف ذلك كله الى شخصية خصها الله بأعظم معاني الحسن والاحسان ، وأكبر مظاهر الجمال والكمال جاء بالعجب العجاب ، وصادفت قوة التعبير وبراعة التصوير ، وعاطفة الحب والتقدير ، ولوعة القلب والضمير ، ممدوحا وحبيبا ألقى الله عليه

محبة منه ، وكساه أجمل لباس من الظـاهر والباطن ، جاءت بكل معجب مطرب •

وعلل ذلك بعضهم بالبعد والهجر ، فلهما تأثير غريب في تفجير منابع القلب والحب ، وتوليد المعاني الغريبة واشعال المواهب الدفينة ، وقد كان أكثر هؤلاء الشعراء يعيشون في بلاد بعيدة عن الجزيرة العربية ، والمدينـة النبوية ، وفي عهد يسود فيه الاضطراب ، والفوضى ، والقلق ، وكانت قوافل الحجاج تتعرض في غالب الأحيان للنهب والغارة ، فاستعاضوا عن الرحلة الطويلة المملوءة بالأخطار ، بالشعر والتعبير فيه عن حنينهم وأشواقهم ، ولم يزل الشعر بريد القلب والشوق، وهو الحمام الزاجل الذي لا يزاحمه شيء ولا يعوقه شيء •

وعلله بعضهم بالتصوف الذي عاش وازدهر في ايران والهند ، وهو مهما انتقده المنتقدون ـ بحق وبغير حق ـ معروف باثارة عاطفة الحب، وتغذيتها وتنميتها، ويصح أن يقال : ان أساسه الحب والعاطفة ، ومن لم يرزق حظاً منهما لم يفلح فيه الا نادراً ، فقد كان هذا التصوف الذي رافق الشعر الايراني والأدب الايراني في أكثر مراحل حياته ، وساهم في تكوينهما ، ثم في توسيعهما وتقويتهما ،

مصدر هذا الشعر الغزلي الرقيق ، والأدب الوجداني ، العميق، فاذا امتلأت الكأس طفحت، واذا طفحت فاضت، ولا بد أن يعقب الري السكر ، ولا بد أن يعقب السكر التغني، وقد عبر الشاعر العربي القديم عن هذه الحقيقة في بلاغة وجمال ، وأنشد بلسان الحال ، فقال :

سقوني وقالوا : لا تغنّ ولو سقَوا

جبال سليمى ما سُقيت لغنّتِ

وعلى كل فقد زخر الشعر الفارسي سواء ما قيل منه في ايران، أو في الهند ـ التي تلمذت عليه واقتبست منه، حتى كانت مدرسة مستقلة بجوار المدرسة الايرانية الأصيلة ـ ببدائع المديح النبوي ، وغرره .

وكان الصديق الفاضل موفقاً في اختيار هذا الموضوع وفي هذا الصنف من الشعر ، وقد ضم المجلس أصنافا من الأدباء أكثرهم يتذوق الشعر الفارسي ، ولا يحتاج الى ترجمة ، وضم طائفة من أدباء العرب الذين لا يفهمون اللغة الفارسية ، ولكنهم يتلذذون بموسيقى الشعر الفارسي ، وجمال النغمة ، وحسن الانشاد .

وكلفني المضيف بترجمة بعض الأبيات ، وكنت أعرف أن مهمة الترجمة، وترجمة الشعر بصفة خاصة، وترجمة

الشعر الفارسي أو الأردي بصفة أخص ، من أصعب الأعمال الادبية وأدقها ، فلكل لغة أجواء تعيش فيها ، وتعبر فيها عن نفسها ، ولا يمكن نقل الأجواء ، وما يكتنف هذه اللغة من جو ، ومحيط ، واقليم ، وطبيعة، ونفسية أبنائها ، وتاريخ أدبها ٠

والشعر أرق وأدق من الزجاج الذي يسرع اليه الكسر، ويبطىء عنه الجبر ، وما كان سر رقته وتأثيره في لفظه وتعبيره ، وفي أسلوبه وأمثاله ، ومناهج كلام أهله ، كانت ترجمته أصعب أو شبه المستحيل ، فتكفلت بنقل ما يأتي في هذه الأبيات من المعاني الجديدة والأفكار اللطيفة ، وآن يسمح لي بتغير بعض الأبيات التي تنسجم مع الذوق العربي ، وما يسهل تناوله واستساغته فأذن لي في ذلك مشكوراً ٠

وكان صديقي قد لقن طائفة من الأدباء والشبابه المثقف المختار من شعر شعراء ايران والهند، وقد أحسنوا حفظه وانشاده ، ومثلوا أصحابه تمثيلا رزيناً وقوراً يتجلى فيه جمال الذوق ، وحسن الأدب ، ومعرفة البيئة التي عاش فيها هؤلاء الشعراء ٠

وكأن أول من تقدم في هذا النادي هو الشيخ سعدي[1] صاحب الكتابين الخالدين اللذين يحتلان الصدارة في مكتبة الأدب العالمي ، وهما «كلستان وبوستان» حديقتان زاهرتان الى هذا الوقت ، وكان الشعر الذي تعلق به القلب ووقع عليه الاختيار شعراً سهلا سائغاً ، كان مثالا للسهل الممتنع ، وكأنه بحر صب في كأس ، أو مكتبة حشيت في سطر واحد ، يقول :

« ان اليتيم الذي نشأ أمياً وعاش أميا ، ولم يقرأ القرآن في كتاب ، استطاع أن ينسخ مكتبات شعوب كثيرة ، فتفقد قيمتها وحيويتها ، وينشىء مكتبة جديدة كانت مصدر العلم والعرفان ، ومنهل كل رائد وظمآن » .

وقد لخص في هذا الشعر تلك الثورة التي تفوق كل ثورة في القديم والجديد في عالم الأديان والأخلاق ، والعلوم والآداب والحضارات والمدنيات ، والقيم والمفاهيم . وكيف تحققت هذه المعجزة على يد أمي . لم يجلس في كتّاب يوما واحداً ، ولم يخط سواداً في بياض ، وكيف انبثق هذا العهد العلمي الجديد الذي لا ناسخ له ، وهذا الانفجار العلمي الهائل الذي خضعت له العصور

---

١ ــ توفي سنة ٦٩١ هـ .

والتاريخ ، من أمية مطبقة لا تشوبها دراسة ولا صناعة. انها لغزة لا يحلها الا الايمان بالقدرة الالهية ، وانها غريبة لولا التواتر ، ولولا البداهة ، ولولا المشاهدة ، ولولا التاريخ المقطوع بصحته ، لما جاز تصديقها والايمان بها .

وجاء الشيخ « فريد الدين العطار » صاحب منطق الطير وصاحب الدواوين السائرة ، والكتب المقبولة ، فأنشد أبياتاً تكاد تسيل رقة وعذوبة تجلت فيها الانابة، والتواضع والخشية والاعتراف بالتقصير ، وطلب فيها أن يسعد بشفاعة الرسول ، وأن لا يفتضح أمام العالمين، والذي هز قلبي ، هو قوله : « **ان له حقاً لكونه سمي باسمه الشريف** [1] ، **والكرام يراعون الأولاد الذين يسمون باسمهم ويعرفون الحق** » .

وجاء بعده شاعر الهند الأمير « خسرو » الذي سلم له شعراء ايران بالزعامة ، والامامة ، وشهدوا له بالاجادة والابداع في الشعر الفارسي ، كأبرز أبنائها وشعرائها ، وقد استرعى انتباه المستمعين ، وملك اعجابهم

---

١ ـ كان اسمه الذي سماه به أبوه « محمد » وقد لقب بفريد الدين ، واشتهر به ، توفي سنة ٦٢٧ هـ .

واستحسانهم بحسن انشاده ، ورخامة صوته ، وحلاوة جرسه [1] ، فكان مما قال :

« ان أنفاسه وأخلاقه قد نفخت الحياة في العرب الذين كانوا في الاحتضار ، وأطفأت في وقت واحد شعلة أبي لهب [2] الوهاجة التي كادت تأتي على الأخضر واليابس، انه وصل في خطوتين من هذا العالم الى ذلك العالم [3] وفي جولة من العالم المادي الى العالم الروحي » .

وجاء مولانا « عبد الرحمن الجامي » [4] الذي يعتبر من أكبر شعراء المديح النبوي في التاريخ الاسلامي ، وقد تغنى بشعره أهل القلوب والعلماء والأدباء في جميع البلاد التي تفهم اللغة الفارسية ، فأنشد أبياتاً من قصيدة له سارت بها الركبان ، ورقت في اللفظ والتعبير ، فكان مما احتملته الترجمة قوله :

---

١ ـ يعد الأمير خسرو من أئمة فنون الموسيقى والألحان والايقاع والنغم ومن مؤسسيها المجتهدين في الهند، توفي سنة ٧٢٥ هـ.

٢ ـ يعني به زعيم الكفر والجاهلية ، وقد اتخذ شخصية أبي لهب كرمز لهذا الاتجاه .

٣ ـ يشير الى الاسراء والمعراج .

٤ ـ توفي سنة ٨٩٨ هـ .

« يا من نسبه عربي ، ولقبه أمي ، لقد دان بولائك ، وخضع لسيادتك العرب والعجم سـواء ، ان فصاحتك استأثرت العرب ، وان ملاحتك ملكت قلوب العجم • ما ضرك أن لا تقرأ ولا تكتب ، فبفضل جهودك وبعثتك تعلم الأميون ، ونبغ الجاهلون ، بك ابيضت صحيفـة الأعمال ، وأشرق نورك في الظلمات ، فلا ضير أن لا تخط سواداً على بياض ، أو تضم سواداً الى سواد » •

وقد اهتز لهذا الشـعر الرقيق البليغ السـامعون ، وترنحت أعطافهم ، فاستزادوا الشيخ وأنشدوا الشعر العربي القديم ، فان الشيخ من كبار فضلاء العربية ، ومن أئمة النحو والبلاغة •

وحدثتَنا يا سعدُ عنهم فزدتنا

شجوناً فزدنا من حديثك يا سعدُ

وطلبوا منه أن يذكر فضل البعثة المحمدية ومَنِّها على العالم الانساني ، فأنشأ قائلا :

« لقد كانت الكعبة قبل بعثته مشحونة بأصنام مـن الحجارة ، وكان الحرم على سعته ضيقاً على من طلب الله وسعى اليه ، انه هو الذي اجتث هـذه الأصنـام وقطع دابرها ، واستأصل شأفتها ، وألقاها في مهاوي العدم •

لقد رجع بفضله مقام ابراهيم الى مكانته الأولى ، وحقق غايته من بناء البيت الحرام » .

وقد استحسن ذلك الحاضرون ، وقد عرفوا أنه سافر على جناح الشوق الى المدينة ، ووقف على قدم الحب في المسجد النبوي ، وأملاه حبه وشوقه الشعر الرقيق الرائق ، الذي طار في الآفاق، وسار مسير المثل، فاقترحوا عليه انشاد قطعة من هذه القصيدة الشوقية ، فكأنه صادف رغبة فيه ، وأثار قيثارته ، فانطلقت منها نغمات، فكان مما قال :

« لقد كان من سعادتي الكبرى أن وصلت اليك ، فكان من شكري واعترافي بهذه النعمة ، وكان من هيامي وغرامي ، أن كنست بأجفاني ومقلتي غبار طريقك ، وسجدت لله شكراً في المسجد وجعلت روحي فراشة تتهافت على سراجك المنير ، هطلت سحابة عيني التي كان عهدها بعيداً بالمنام ، فنضحت بمائها عتبة بيتك ومدفنك ، لقد سعيت الى منبرك فمسحت بوجهي قوائمه ، ووقفت في محرابك وسجدت لله ، وغسلت موضع قدمك بدم العين لا بدمعها ، لقد وقفت أمام كل سارية ، وسألت الله أن يرزقني مقام الصادقين الذين صلّوا الى هذه السواري في صدق واخلاص » .

وقد كان في المجلس بعض العلماء ، فرفعوا رؤوسهم عند بعض الأبيات ، ونظروا الى الشاعر شزراً ، والى المترجم اشفاقاً وحذراً ، وكأنهم خافوا من تورط الشاعر في بعض مالايجوز ، فقلنا ان الشاعر من الراسخين في العلم ومن أصحاب العقيدة الصحيحة ، ولكنها لغة الحب والشعر لا لغة الفقه والكلام، وانها مجازات واستعارات، لا حقائق وقضايا .

وجاء بعده الشاعر الايراني العظيم الذي كان من أئمة الغزل والقصيد ، ومن أصحاب المذهب الجديد ، في الشعر الفارسي ، وهو الملقب بـ « عرفي » (١) وكنت أعرف أنه شاعر البلاط ، ومداح الملوك ، وأستاذ الشعراء في عهده، وأن عهده قريب بمدح ممدوحه وسيده، ولكنه تأدب لمقام الرسالة ، واعتذر عن مواقفه القريبة ، وقال : **انه لا يمكن أن يتغنى رجل بمدح الملوك والسلاطين ، ومدح الرسول الأمين ، وسيد الأولين والآخرين في وقت واحد ، ومن اساءة الأدب وقلة الذوق ، أن يجمع الانسان بين المدحين ، وأن يكون له نفسان متقاربان ، نفس في مدح سلاطين العجم ، ونفس في مدح سيد العرب والعجم .**

---

١ ــ توفي سنة ٩٩٩ هـ .

وأعذره الحــاضرون ولم يلحوا عليه بانشــاد مديح نبوي ، وأخروا ذلك الى مناسبة أخرى •

وجاء شاعر المديح النبوي المعروف بـ « القدسي »[1] وهو الذي لا تزال الأوساط العربية ، والصوفية ، تردد صداه ، وتنشد أبياته ، وتجدد بها الايمان والحنان ، وشعره يمتاز بجمال النغمة ، وحلاوة الوزن ، واندراج الكلمات العربية في اللغة الفارسية، لذلك هام بهالمغنون، وقلده الشعراء والعلماء ، وكان من أكثر الأشعار التي تغنى بها الناس ، وكان البيت الوحيد الذي استطعت أن أنقله بجماله وكماله ، هو قوله : « **عزوت نفسي مرة الى كلب من كلاب حيك ، وخجلت وأطرقت رأسي حياء ، وقلت : هذه اساءة أدب وقلة ذوق** » •

وقد شعرت وأنا أنقل معناه ، أنه تورط في مبالغة وغلو ، فالانسان الذي أكرمه الله بالانسانية ، ثم أنعم عليه بالايمان ، هو أشرف على كل حال من الكلب ، ولكني قلت : ان حبه وتواضعه قد ورطــاه في هــذا التعبير ، وللمحب عذر وللشاعر عذران •

---

١ ــ توفي سنة ١٠٥٦ هـ •

وقام من بين شعراء الهند الكبار « غالب » [1] ليلحق بهذا الركب الميمون ، ويساهم في هذه الندوة الجديدة الايمانية ، وأنشد مما طاب وراق من أشعاره السهلة ، وكان شعره من غير مبالغة في المدح واسترسال في الخيال واغراق في الصناعات اللفظية •

« ان بنانه لم يمسك القلم لكنه سطر ما عجزت عنه أقلام التاريخ ، ما وضع قدمه على الصحراء الا وتحولت الى جنة خضراء •

حلو كلامه يجعل الكافر مسلما والزنديق مؤمنـا ، أضاء الدنيا بنور الدين ، وأنقذ المؤمنين من عذاب يوم الدين •

حرر العباد من عبادةالأوثان وعمر العالم ببيتواحد ، بيت الايمان ، أذاب قلوب الأعداء ونفوسالقساة الغلاة، ولا غرو ، فحصاة عتبته تذيب الحديد ، وتلين الشديد•

---

١ ـ هو أسد الله خان « غالب » الدهلوي أشهر شعراء « أردو » وأحظاهم بالقبول توفي ١٢٨٥ هـ • وقد احتفلت الهند حكومة وشعباً بذكراه بمناسبة مرور مائة سنة على وفاته، وكان من شعراء الفارسية المعدودين أيضاً •

عاكف في المحراب وقلبه معلق بخلق الله» .

وجاء بعد هؤلاء الايرانيين الأقحاح هندي من المعاصرين ، ضارع شعراء ايران في رشاقة اللغة وحلاوة اللفظ وجمال الأسلوب ، وهو الأستاذ مسعود علي المحوي (١) فأنشد قائلا :

« رفعت الفطرة اللثام عن وجهها ، وتجلّت بأجمل مظاهرها ، وفعلت فعل الربيع ، فكسيت الأرض لباساً أحمر من الزهور والورود ، ذلك كله لأجل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، ان نظره يعمل عمل الكيمياء فيحول الخزف الأسود الذي لا قيمة له تبراً خالصاً، وذهبا وهاجا، انه سيد استطاع من غير جيش وكتائب ، أن يجعل من التائهين في البادية ملوكاً يحكمون العالم، وأساتذة يعلمون الأمم » .

وجاء دور شعراء « أردو » وكان عددهم كثيراً ، فكان التغني بمدح الرسول ، والتحنن الى بلده ومسجده، موضوع شعراء الهند المفضل ، وحديثهم الأثير الحبيب،

---

١ ـ ولد في قرية مجاورة للكهنؤ ، واكتسب اللغة الفارسية دراسة وذوقاً ، واشتغل في دار الترجمة في حيدر آباد ، ومات هناك .

وقد ردد صداهم الشعب الهندي المسلم في حماس وطرب، وتسلّى به في أحزانه، واستمد القوة الروحية والاعتزاز بحب الرسول النبي العربي صلى الله عليه وسلم في مقاومة تيارات القومية الهندية المتطرفة ، أو الوطنية الملحدة، حتى اتهمه الغلاة من دعاة القومية والوطنية بتفضيل الوطن الروحي على الوطن الجسدي ، ووكر الروح على وكر البدن ٠

هنالك اقترح الحاضرون على شاعر المديح النبوي « محسن كاكوروي » (١) الذي وقف حياته كلها على المدائح النبوية ، وقيل عنه : أنه لم يخط بيمينه غير المدح النبوي ، ولم يكن يحب أن يمدح غيره بالقلم الذي مدح به النبي صلى الله عليه وسلم ٠

وتقدم الشاعر يصف ليلة الاسراء التي سعدت بأنوارها ونفحاتها البشرية ، وسعد بها حظ الأرض ، والدرجة التي فاز بها جبريل الأمين ، وهو يتمثل أمام النبي ليسير به في هذه الرحلة الخالدة عبر السماوات السبع الى ما يشاء الله ٠

---

١ ــ توفي سنة ١٣٢٣ هـ ٠

« أيقظ النبي الكريم في أدب وتواضع ، بل أيقظ ــ في تعبير أصح وأفصح ــ حظه وجده وطالعه ، فاذا هو صلى الله عليه وسلم يرى في هذا الليل من العجب العجاب ما يأخذ بالألباب ، ان تتابع الأيام والاعوام ، وتقلب الليل والنهار ، لم يلدا ليلة مباركة كهذه الليلة، ان هذا الاكرام الذي نالته الأرض في هذه الليلة لا تناله الآن الى الأبد ، ولو أصبحت تبرأ وتحولت درأ وجوهرا واكسيرا ، تتابعت فيها الرحمات كالندى واتصلت الأرض بالسماء» .

ثم تقدم زعيم الشعر الاسلامي الحديث الشيخ « ألطاف حسين » الملقب في شعره « بحالي » [1] صاحب المنظومة أو الملحمة الاسلامية التي كان لها التأثير الكبير في هز مشاعر المسلمين بعد ثورة ١٨٥٧ م وايقاظ النخوة الاسلامية فيهم ، وهي التي حظيت باقبال وقبول لم يحظ بهما شعر آخر ، وامتاز شعره الذي أنشده في هذه المناسبة بحسن تصويره للواقع التاريخي وبعده عن المبالغة ، وأساليب شعراء العجم ، وكان مما جاء فيه:

« لقد خص من بين النبيين بلقب « رحمة للعالمين » هو الذي كان من دأبه اسعاف حاجات الفقراء ، وتحقيق

---

١ ــ توفي سنة ١٣٣٣ هـ .

رغباتهم المكنونة ، وكشف كربات الأعـداء والبعداء ، ومشاركة البعيد والقريب في أحزانهم ونوائبهم ، يتألم بألمهم ، ويفرح بفرحهم ، ملجأ الفقراء، ومأوى الضعفاء، وولي الأيتـام ، ومربي العبيد والأرقـاء ، يصفح عن الاخطاء ، ويحسن الى من أساء، ويصلح ما أفسده الناس، يوحّد القبائل المتناحرة ، ويؤلف بين القلوب المتنافرة ٠
نزل من غار حراء وفي يده اكسير من السـماء ، حـول التراب تبراً ، والحصى دراً وجوهرا ، أقبل الى الأمـة العربية التي كان يخيم عليها الجهل من قرون ، فأحدث فيها ثورة جذرية ، انقلبت بها أوضاعها وتغير بها مجرى التاريخ ، فقد ظل هذا المعدن الكريم مطموراً مغموراً في التراب، وتحت ركام الجاهلية لايعلم أحد قيمته وغَناءه٠ وقد أصبح ماطبعه الله عليه من أوصاف وفضائل ضائعا عاطلا ، فما وقع نظره على ذلك ، وما هبت عليه نفحة من نفحات بعثته حتى تلألأ نوراً وصفاء ، وأصبح ذهباً خالصا ، ان الحجر الذي رفضه كل بَنّاء ، وزهد فيه كل معمار ، تناوله بيده الكريمة وجعله حجر الزاوية ٠

لقد هاجت سحابة من بطحاء مكة ملأت سمع الزمـان وبصـره ، وشـرّق وغرّب رعدهـا وبرقهـا ، فبينما رعدت على نهر « تاجه » في أسـبانيا ، أمطرت على نهر

« الكنج » في شبه القارة الهندية • لقد أحيى غيثها مزرعة الانسانية القاحلة ، وعم برها البر والبحر ، فما ترى في العالم من رواء وبهاء ، ونور وسناء ، الا والفضل فيه يرجع الى البعثة المحمدية •

وتبعه الشاعر الكبير «ظفر علي خان»(١) الذيأحدث مدائحه النبوية دوياً في الأوساط الاسلامية والأدبية ، ولاحظ ضيق الوقت وتأدب مع الأساتذة الكبار ، فاقتصر على أبيات من قصيدته السائرة التي يفتتح بها كثير من الثانويات الاسلامية حفلاتها ودراستها ، وقد امتازت هذه الأبيات بجمال البحر والوزن، وحسن النغمةواللحن، وكان مما جاء في هذه الأبيات :

« ان السراج المنير الذي ظل سنين طوالا يتلألأ في الخلوات ، وفي بيئة ضيقة محدودة ، لقد سبق علم الله أن تستنير به مجالس الملوك والعلماء وتقتبس نوره ، وتمشي في ضوئه قوافل العلم والحضارة، انه سر الوجود، ولولا دينه ورسالته ، ولولا نبوته وبعثته ، لما أخذت الأرض زخرفها ، ولما أكملت السماوات زينتها » •

---

١ ــ توفي سنة ١٩٥٦ م •

« ان اللغزة التي عجز عن فكها النوابغ والأذكياء ، وأخفق في شرحها الفلاسفة والحكماء ، أفشى سرها، ورفع اللثام عن وجهها أمي كان يرتدي نَمِرة ، في لفظ وجيز ، وفي اشارات لطيفة • ليس الايمان بضاعة رخيصة، ولا سلعة معروضة في دكان الفلسفة ، انه علِق نفيس ، يبحث عنه الباحثون العقلاء فيجدونه في أجزاء القرآن ، ان أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً أشعة شمس واحدة ، انها حلقة مفرغة لا يعلم طرفاها » •

واتجهت الأبصار نحو الشاعر « اقبال أحمد سهيل »[1] الذي عرف بمدائحه المشهورة ، وقصائده السائرة ، واقترح عليه الحاضرون أن ينشد قصيدته المشهورة « موج كوثر » فقدّم بعض أشعاره ومختاراته التي جاء فيها :

« غرة ناصية البشرية ، ونور جبين الانسانية ، النبي الذي بدد ظلمات الكفر ، ونثر درر الايمان ، ورفرف راية التوحيد ، حارس حديقة البشرية ، وروضة الانسانية ، ألغى عادة الرق ، وحطم سلاسل العبودية والذل ، أعاد الى الروضة رواءها وأفاض عليها خيرها

---

١ ــ توفي سنة ١٩٥٥ م

وبركتها ، كانت أسرة البشرية متفرقة ، فجمعها على مائدة واحدة ، وكانت لآلىء الحق والايمان منتثرة ضائعة ، فربطها في سلك واحد •

قضى على أوهام الجاهلية ، وخرافات الوثنية ، وأتاح للانسان أن يتصل بالخالق الأحد الصمد ، صب على من عاداه وآذاه رشحات حبه وعفوه ، وشمله برعاية عطفه وحنانه، جمع بين سلطان الفقر والغنى، والجسد والروح، والدين والدنيا ، صلى الله عليه وسلم » •

وتقدم بعده صاحب الملحمة الاسلامية المشهورة «حفيظ الجالندهري » فأنشد أبياتاً من ملحمته المشهورة ، وقد جاء فيها بعض الحقائق التاريخية في لفظ رشيق ، وأسلوب أدبي ساحر ، منها قوله :

« انه رد الى الانسانية كرامتها واعتبارها ، والى أفراد النوع الانساني حقهم في الحياة ، ونكّس الباطل ، وقلب عروش الملوك الجبابرة ، رفع رأس كل انسان صابر ، وشرّف قدر الأجير ، وأهان المثري المستأثر ، لقد كان الفقر فخره ، ولكن كانت سطوة كسرى وقيصر تحت قدمه ، انه كسر سلاسل الظلم والباطل النارية التي يصعب كسرها ، وجبر القلوب المنكسرة المتهافتة التي يصعب

جبرها، فصلوات الله عليك يامن كان كسره معجزة وجبره معجزة » •

وما أن وقف الشاعر ، حتى رنت العيون الى « ماهر القادري » وطلب الحاضرون من الشاعر أن ينشد في هذه المناسبة الكريمة قصيدته التي صور فيها النعمة العظيمة التي فازت بها الانسانية ، عن طريق هذا « النبي العظيم» والذي لا يمثل الا الواقع ، ولا يعبر الا عن المشاهد الحية التي مرت على مسرح العالم ، فتقدم وأنشد ما طاب له من ابيات رائعة عن مبعث النبي صلى الله عليه وسلم •

« هبت نفحات الرحمة ، وتحققت أحلام البشرية ، وسقيت الأرض المجدبة القاحلة بوابل من جوده وكرمه وأخلاقه ، فأضاء رعاة الابل شموع الحضارة ، وجعل الأشواك أزهاراً ، وذرات الصحراء كواكب ونجوماً » •
« أقام الصلة بالرب ، وفك طلاسم الباطل ، وغير مجرى التاريخ ، وأنزل السفينة على بر الأمان والسلامة والايمان ، رغم أمواج هائلة ، ورياح عاتية ، منح الانسانية سيفا ومصحفاً ، ودنيا وآخرة ، وجعل الموت شهادة ، وعلم آداب الحياة » •

« نصر المظلومين وأغاث الملهوفين، كان بلسماللجروح

وشفاء للصدور ، أضفى على المرأة رداء الحياء ، ورقة الزجاج ، وأضاء جوهر السيرة والأخلاق ، فلم يقف سيل التوحيد ، ولم تنتكس راية الاسلام رغم غيظ الكفار والمشركين ، ومقت الشياطين ، فما أن تردد اسمه الحلو الحبيب على اللسان ، حتى تجاوبت الشفاه والعيون معا، هذه بالدموع الفائضة وتلك بالبسمة العريضة ، وذلك شأن المحب الهائم اذا تذكر حبيبه الذي بلغ المنتهى في الحسن والاحسان » •

وجاءت نوبة « محمد اقبال » فارتفعت رؤوس الناس واشرأبت أعناقهم ، وغمرت المجلس موجة من الاهتزاز والتطلع ، فقام المضيف الكريم ، وقد شعر بأن المجلس قد طال ، فقال : حسبكم أيها السادة ما سمعتموه وتذوقتموه ، وان لشاعرنا الكبير مجلساً خاصا ، وحديثا خاصا ، لا يشاركه فيه أحد ، ووافق الجميع وقاموا ، وألسنتهم تلهج بالشكر ، ووجوههم تفيض بالبشر •



شعراء العجم في مدح سيد العرب والعجم

(٢)

وأنجز الصديق الكريم وعـده وعقد ندوة خاصـة للحديث عن شعر « محمد اقبال » في المدح النبوي ومناجاته مع الرسول في عالم الخيال ، وقام أحد الأدباء المختصين بدراسة « اقبال » فتلا المقال الآتي :

« ان من العوامل الأساسية البارزة التي يرجع اليها الفضل في تكوين شخصية فيلسوفنا الكبير محمد اقبـال وتماسكه أمام المادة ومغرياتها ، وتيار الحضارة الغربية الجارف هو الاتصال الروحي بالنبي صلى الله عليه وسلم وحبه العميق له ، ولا شك أن الحب هو خير حاجز للقلب، وخير حارس له ، اذا احتل قلباً وشغله، منعه من أن يغزوه غيره ، أو يكون كريشة في فلاة ، أو يعبث به العابثون ، يقول : « لم يستطع بريق العلوم الغربية أن يبهر لبي ، ويـُعشي بصري ، وذلك لأني اكتحلت باثمد المدينة » ويقول : « مكثت في أتون التعليم الغربي وخرجت كما خرج ابراهيم من نار نمرود » .

ويقول :

« لم يزل ولا يزال فراعنة العصر يرصدونني ، ويكمنون لي ، ولكني لا أخافهم فاني أحمل اليد البيضاء، ان الرجل اذا رزق الحب الصادق عرف نفسه ، واحتفظ بكرامته ، واستغنى عن الملوك والسلاطين ، لا تعجبوا اذا اقتنصت النجوم ، وانقادت لي الصعاب ، فاني من عبيد ذلك السيد العظيم الذي تشرفت بوطأته الحصباء، فصارت أعلى قدراً من النجوم ، وجرى في أثره الغبار فصار أعبق من العبير » .

وفي كتاب « أسرار خودي » ذكر الشاعر مقومات حياة الأمة الاسلامية ، والدعائم التي تقوم عليها ، فذكر منها اتصالها الدائم بنبيها صلى الله عليه وسلم ، والتشبع بتعاليمه ، والتفاني في حبه . ولما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم اندفع يمدحه وأرسل النفس على سجيتها فقال أبياتاً لا تزال تعد من غرر المدائح النبوية ، والشعر الوجداني ، يقول :

« ان قلب المسلم عامر بحب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وهو أصل شرفنا ، ومصدر فخرنا في هذا العالم ، ان هذا السيد الذي داست أمته تاج كسرى ، كان يرقد

على الحصير ، ان هذا السيد الذي نام عبيده على أسرة الملوك كان يبيت ليالي لا يكتحل بنوم • لقد لبث في غار حراء ليالي ذوات العدد ، فكان أن وجدت أمة ، ووجد دستور ، ووجدت دولة ، اذا كان في الصلاة فعيناه تهملان دمعاً ، واذا كان في الحرب فسيفه يقطر دما •

لقد فتح باب الدنيا بمفتاح الدين ـ بأبي هو وأمي ـ لم تلد مثله أم ولم تنجب مثله الانسانية ، افتتح في العالم دوراً جديداً ، وأطلع فجرا جديدا ، كان يساوي في نظرته الرفيع والوضيع ، ويأكل مع مولاه على خوان واحد • جاءته بنت حاتم أسيرة مقيدة ، سافرة الوجه ، خجلة مطرقة رأسها فاستحيىَ النبي صلى الله عليه وسلم، وألقى عليها رداءه •

نحن أعرى من السيدة الطائية ، نحن عراة أمام أمم العالم ، لطفه وقهره كله رحمة ، هذا بأعدائه ، وذاك بأوليائه ، الذي فتح على الأعداء باب الرحمة ، وقال : لا تثريب عليكم اليوم • نحن المسلمين من الحجاز والصين وايران وأقطار مختلفة ، نحن غيض من فيض واحد • نحن أزهار كثيرة العدد ، متحدة الطيب والرائحة ، لماذا لا أحبه ، ولا أحن اليه ، وأنا انسان ، وقد بكى لفراقه

الجذع، وحنَّت اليه سارية المسجد ؟ ان تربة المدينة أحب الي من العالم كله ، أنعم بمدينة فيها الحبيب » •

ولم يزل حبه للنبي صلى الله عليه وسلم يزيد ويقوى مع الأيام ، حتى كان في آخر عمره اذا جرى ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في مجلسه أو ذكرت المدينة ــ على منوِّرها ألف سلام ــ فاضت عينه ، ولم يملك دمعه ، وقد ألهمه هذا الحب العميق ، معاني شعرية عجيبة ، منهــا قوله وهو يخاطب الله سبحانه وتعــالى : « أنت غني عن العالمين ، وأنا عبدك الفقير ، فاقبل معذرتي يوم الحشر وان كان لا بد من حسابي ، فأرجوك يا رب أن تحاسبني بنجوة من المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فاني أستحي أن أنتسب اليه وأكون في أمته ، وأقترف هذه الذنوب والمعاصي » •

وكان محمد اقبال كثير الاعتداد بهذا الايمان ، شديد الاعتماد عليه ، يعتقد أنه هو قوته وميزتــه ، وذخره وثروته ، وأن أعظم مقدار من العلم والعقل ، وأكبر كمية من المعلومات والمحفوظات لا تساوي هذا الايمــان البسيط • يقول في بيت :

« ان الفقير المتمرد على المجتمع ــ يشير الى نفسه ــ

لا يملك الا كلمتين صغيرتين ، قد تغلغلتا في أحشائه وملكتا عليه فكره وعقيدته ، وهما : لا اله الا الله، محمد رسول الله • وهنالك علماء وفقهاء ، الواحد منهم يملك ثروة ضخمة من كلمات اللغة الحجازية ، ولكنه قارون لا ينتفع بكنوزه[1] » •

وكان شديد الغيرة على اعتزائه الى هذه الرسالة والى هذه الشخصية العظيمة ، فكان يأبى أن يتطفل على مائدة أجنبية ، أو أن يروي غلته من معين غريب ، يقول : **« رفقاً يا رسول الله بفقير غيور أبي النفس رفض أن يملأ كوبه من نهر الأجانب » •**

وجاشت نفسه الكبيرة الدافقة بالحنان والايمان في الثالث من ابريل سنة ١٩٣٦ م وهو عليل رهين الفراش في بهوبال (الهند) وقد آلمه ما كان يراه من وضع العالم الاسلامي المخزي ، والفراغ الفكري والروحي الهائل الواقع فيه، وضعف الشخصية الاسلامية الشائن، واندفاع الجيل الجديد المتهور الى الفكرة الغربية ومثلها وقيمها ، وتخليه عن رسالته ومركزه ، ففاضت قريحته بشعر من

---

١ ــ روائع اقبال ص ٢٥ ــ ٢٧ •

أبلغ الشعر الوجداني تحدث فيه الى النبي صلى الله عليه وسلم ، وشكا اليه في عالم الخيال ضعف العالم الاسلامي وفقره الروحي وانحرافه عن الجادة ، وما كان يجده في نفسه من فتور بعد النشـــاط ، ومن ضعف في العمل ، يقول :

أشكو اليك يارسول الله صلى الله عليك وسلم هذه الأمة التي تسلط عليها خوف الموت ، انك حطمت الأصنــام القديمة كاللات ومنات ، وجــددت العالم القديم الذي سرى فيه الهرم ، ودب فيه الموت ، فأصبح العالم يستقبل اليوم الجديد بالايمان والحنان ، والتسبيح والأذان ، ويستمد من الشهادة التي لقنته اياها الانتباه والحضور ، والنور والسرور ٠

اننا ــ وان ولدنا في بلاد عريقة في الوثنية ــ رفضنا أن نعبد الثور والبقرة ، وأبينا أن نطأطيء رؤوسنا أمام الكهان والسدنة ، فلم نخر بين يدي الآلهة القديمة ، ولم نَطُف حول بلاط الملوك وقصور الأمراء ، والفضل في كل ذلك يرجــع الى دينــك الذي جئت بــه والى جهــادك الــذي قمت بــه ، فقــد تربينــا عــلى الســفرة التــي

---

١ ــ روائع اقبال ص ٢٥ ــ ٢٧ ٠

بسطتها للعالم وقد ظل حديثك مصدر الشوق والسرور للأمة طيلة هذه القرون ، وقد استطاعت بذلك أن تكون أبية في الفقر ، عفيفة في الحاجة ، ولكن العالم الاسلامي اليوم قد فقد الشيء الكثير من قوته وقيمته •

لقد تجولت في ربوع العالم الاسلامي ، وزرت بلاد العرب وديار العجم، فرأيت من يقتدي بك ويجدد ذكراك مفقوداً لا يقع عليه العيان ، ورأيت من يمثل أبا لهب ويحكيه كثيراً يوجد في كل مكان ، ان الشباب الاسلامي قد استنارت عقولهم ، وأظلمت قلوبهم وضمائرهم ، انهم في شبابهم ناعمون ، رقاق كالحرير ، لا يحتملون الأمل الجديد ، والنظر البعيد ، انهم نشأوا على العبودية ، ودرج على ذلك جيل بعد جيل ، حتى أصبحوا لا يحلمون بالحرية ولا يطيقونها •

ان نظام التعليم الجديد ومؤسساته انتزعت منهم النِزعة الدينية حتى أصبحوا خبر كان ، انهم هاموا بالغرب وجهلوا قيمتهم، يريدون أن يتصدق عليهم الغرب بكسرة خبز أو حفنة شعير ، انهم باعوا نفوسهم الكريمة من أجل لقمة حقيرة ، فأصبحت الصقور التي تحلق في

السماء عصافير صغيرة لا شأن لها بالأجواء الفسيحة والمرامي البعيدة ·

ان أساتذة هذا الجيل الذين بضاعتهم في العلم مزجاة لم يخبروه بمركزه ومنصبه ، ان نار الغرب قد أذابت هذا الجيل كالشمعة ، وصاغته صوغاً جديداً ، فأصبح في هذه الجحيم ممسوخا منكوساً ، وأصبح المسلم لا يعرف سر الموت ولذته ، ولا يؤمن كما كان يؤمن في القديم بأنه (لا غالب الا الله) · لقد مات قلبه بين جوانحه فأصبح لا يفكر الا في المنام والطعام ، انه حكّم الغرب في نفسه ليتلقى منه رغيفاً ، وقبل منّة مائة انسان من أجل بطن واحد ، ان محطم الأصنام وسليل ابراهيم قد أصبح « آزر » ينحت الأصنام ، انه يشتري من الافرنج أصنامهم الجديدة ·

ان هذا الجيل قد أصبح في حاجة الى بعث جديد ، والى أن تقول له مرة ثانية : قم باذن الله · لقد سحرتنا الحضارة الغربية ، وقد استطاع الغربيون أن يقتلونا من غير حرب وضرب · لقد استطاعت أمتك وأصحابك أن يثلوا عروش كسرى وقيصر ، والعالم ينتظر من جديد ثائراً جديداً

يؤمن بالله ويكفر بغيره ، ويكسر طلاسم هذه الحضارة ويبطل سحرها •

نفسي فداؤك أيها الفـارس الكريم ! بالله اقبض العنان ، وقِـف بي لحظة ، أبث اليك بالأشجان والأحزان، وقد تلجلج لساني وخانني البيان ، انني في صراع بين سلطان الشوق وسلطان الأدب • ان الشوق يقول لي : تشجع وتكلم فأنت من الحبيب بقـاب قوسين ، والأدب يقول : اياك والفضول ، فافتح العينين وأطبق الشفتين ، ولكن الشوق عصيٌّ ثائر ، لا يخضع للأدب ، انني أطلب منك نظرة التفات ، فأنا ذلك الغزال التائه اللاغب الذي زهد فيه الطالبون ، وانصرف عنه الصيادون ، فلجأت الى حرمك ، ولأمر ما تراميت في أحضانك ، ان صوتي قد اختنق في حلقومي ، وان اللهيب عاد لا يتجاوز صدري، وان أنفاسي قد تجردت من لوعة القلب ولهيب الصدر ، وانني فقدت اللذة التي كنت أجدها في قرآن الفجر •

ان الزفير الذي لا يسعه الضمير كيف استقر في الصدر كالعاني الأسير ؟ انه يحتاج الى أجواء لا نهاية لها ، والى سعة السماوات التي لا حدود لها ، يا لها من علل يعانيها جسدي وروحي ، و لادواء لها الا أن تنظر اليّ من طرف

خفي ، ان هذه الأدوية التي يصفها الأطباء لا تناسب روحي العليلة ، فان شامتي اللطيفة لا تحتمل مرارتها ورائحتها ، فأنا مريض لا يرجع فيه الى طبيب فأبكي بكاء الأطفال اذا جرعوا الدواء المر ، وأنا أخادع نفسي فأمزجه بالحلاوة حتى تسهل اساغته ، انني كالبوصيري أطلب الفتح والفرج ، وأن يعود اليّ ذلك اليوم الذي فقدته ، ان العصاة من أمتك أسعد بشفاعتك وأكثر حظاً من عطفك من غيرهم ، كالأم الحنون الرؤوم في عطفها وصفحها عن اساءة أبنائها •

انني مع عباد الليل والظلام في صراع شديد ، فمد سراجي بمدد من الزيت من جديد ، ان وجودك كان للعالم ربيعاً وللانسانية خصبا وريعا ، فلا تضن عليّ بشعاع من أشعة شمسك المنيرة للعالم • ان قيمة الجسم بالروح ، وان قيمة الروح هو اشراق من المحبوب ، انني أريد أن ينقطع رجائي من غير الله ، فاجعلني سيفاً ، أو اجعلني مفتاحاً •

لقد أسرع بي ذهني الوقاد في مجال الفقه وحكمة الدين ، ولكن أبطأ بي عملي في مجال الكفاح ، ان مهمتي

أصعب وأدق من مهمة « فرهاد[1] الذي كلف تفجير نهر من لبن في جبل صلد أصم[2] ، فأنا في حاجة الى آلات أحد ، وقوى أشد ، حتى أتم مهمتي ، وأحقق رغبتي ، انني مؤمن لا أكفر بشخصيتي ومواهبي ، فضعني على المسن[3] فانني حديد من معدن كريم .

انني وان كنت قد ضيعت شبابي ، وأتلفت حياتي ولكني أملك شيئاً اسمه « القلب » انني أغار عليه وأستره من العيون ، لأنه يحمل أثراً من حافر جوادك الأصيل، ان العبد الذي قد زهد في زخارف الدنيا ، انما يتسلى برضا سيده وعطفه ، ويعتبر حياة الهجر والفراق موتاً .

---

١ ـ هو بطل أسطورة شائعة في الأدب الفارسي ، خلاصتها : أنه عشق امرأة اسمها «شيرين» كان يحبها ملك اسمه «خسرو» فلما عرف ذلك الملك كلفه أن يفجر نهراً من لبن من الجبل ، فحمله الهيام بعشيقته على ذلك العمل العقيم ، وأكب على ذلك وانصرف اليه حتى مات ، ويضرب به المثل في الوفاء والتفاني .

٢ ـ يشير الى أنه كلف نفسه اخضاع الفلسفة الغربية المادية للغايات الدينية والخلقية ، والخروج منها بفلسفة جديدة، وفكرة جديدة ، تخدم مقاصد الدين الاسلامي .

٣ ـ المشحذ الذي يسن أو يشحذ عليه السكين أو آلات الحديد .

يا من منح الكردي[1] لوعة العرب ، اسمح للهندي أن يمثل بين يديك ، ويتحدث بأشواقه وأحزانه اليك ، انه يحمل قلباً حزينا ، وكبداً مقروحة ، لا يعلم أصدقاؤه وزملاؤه ما يعانيه من حزن وألم ، انه لا تنقطع ألحانه المشجية ، كالعود الذي لا راحة له ولا انقطاع ، انني كحطب في الصحراء مرّ به ركب، فأشعل فيه النار وأعجل الركب السير ، فمضى وخلّفه ، وبقي الحطب يشتعل ، وينتظر ركباً جديداً ليستهلكه ويأتي على بقيته ، فمتى يمر به ركب جديد في هذه الصحراء الموحشة المظلمة[2] ؟!

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

---

١ ــ يشير الى السلطان صلاح الدين الأيوبي الكردي .

٢ ــ مأخوذ من ديوانه « ماذا يجب أن تعمله شعوب الشرق » (الفارسي)

المحتوى